علي فكري



السمير المهذب

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد — فى إعادة طبع الجزء الثانى من كتابنا (السمير المهذب) (للمرة الرابعة) لدليلا واضحاً على أهميته ونفعه وانتشاره؛

وهناك دليل آخر محسوس وملموس نذكره على سبيل الاستشهاد وهو : أنه وصل إلينا خطاب من الأستاذ محمد أمين محمد صالح فى (جزائر الملايو) يطلب منا ترجمة هذا الكتاب جاء فيه ما يأتى :

« بما أن كتابكم (السمير المهذب) كتاب نفيس ، جمع حكماً شريفة ، ومواعظ جليلة ، رأينا ألّا تقصر فائدته على قراء اللغة العربية ، واستحسنا ترجمته إلى (لغة الملايو) لكيلا يحرم قراؤها من ثماره .

وحفظاً لكرامة الأدب كتبنا هذا لإعلامكم أولًا ، ولطلب الإذن فى نشره ثانياً . وقد فرغنا من الترجمة وهو الآن تحت الطبع .

والأمل فى مكارمكم موافقتنا ، والله يتولانا أجمع ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والسلام » .

ولم نر بدأ – خدمة للأدب والدين – من الإذن لحضرته بترجمته وطبعه لفائدة الناشئين فى (جزائر الملايو) وتعريفاً لأهالى البلاد بالمؤلفات العربية النافعة ، وتوثيقاً لعرى الود بينهم و بين المصريين .

فهل بعد هذا دليل على أهمية هذا الكتاب ، وضرورة إعادة طبعه للمرة الرابعة ؟

وختاماً نسأله تعالى أن يستمر فى انتشاره ونفعه للطلاب ، والله الموفق لما فيه الخير والصواب ؟

السيد

علي فكري

الأمين الأول ورئيس المغيرين

لدار الكتب المصرية سابقا

حكايات وأمثال فى فضل الحياء

المثل الأعلى فى الحياء

« محمد صلى الله عليه وسلم »

١ ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء .

قال أبوسعيد الخدرى رضى الله عنه : كان عليه الصلاة والسلام أشد حياء من العذراء (البنت البكر) فى خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه وكان عليه السلام لطيف البشرة ، رقيق الظاهر ، لايشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان عليه السلام إذا بلغه عن أحد مايكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، وكذا ؟ بل يقول : مابال أقوام يصنعون أو يقولون كذا . ينهى عنه ولا يسمى فاعله .

٢ ـ دخل رجل على الأمير المجاهد (مسلم بن قتيبة الباهلى) فكلمه فى حاجة له ، ووضع نصل سيفه على إصبع رجل الأمير ، وجعل يكلمه فى حاجته ، وقد أدمى النصل أصبعه . فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف دعا مسلم ابن قتيبة بمنديل فمسح الدم من أصبعه وغسله فقيل له : ألا نحّيت رجلك أصلحك الله ، أو أمرت الرجل برفع سيفه عنها ؟ فقال : خشيت أن أقطع عنه حاجته .

٣ ــ سأل رجل (ابن العلاء) حاجة فوعده بها ، ثم تعذرت عليه فلقيه الرجل وقال له : وعدتنى وعداً فلم تنجزه . فقال له ابن العلاء : فمن أولىٰ بالغم أنا أو أنت ؟ فقال له الرجل : أنا ، فقال ابن العلاء : بل أنا ، لأنى وعدتك فأبت أنت بفرح الموعد ، وأبت أنا بهم الإنجاز ، ثم عاق القــدر عن بلوغ الإرادة فلقيتنى مدلًا ، ولقيتك محتشماً ، فصرت أولىٰ منك بالغم . (عن السمير الواعظ)

حياء أفلاطون ولطفه

٤ ــ ذهب (أفلاطون) يوماً لرؤية الألعاب الرياضية الدولية (الأولمبية) التى تجرى فى بلاد اليونان كل أربع سنوات مرةً ، وكان صيته قد انتشر فى الآفاق ، وشمس مجده بهرت الأقطار ، ونزل على قوم يجهلهم ويجهلونه فطالت إقامته معهم حتى اختلب قلوبهم بلطفه ، وأدهشهم بكرم خلقه وشدة تواضعه وحيائه ، ولم يكلمهم بكلمة من العلم والفلسفة .

ولما سألوه عن اسمه قال : أفلاطون ، ولم يزد .

ولما انتهت الألعاب ، وعاد الكل إلى أوطانهم ، ذهب جيران (أفلاطون) المذكورون إلى (أثينا) لحاجات لهم ، ونزلوا بيته فأكرمهم وأحسن ضيافتهم ، فقالوا : إنا جئنا (أثينا) لحاجات لنا أخصها رؤية فيلسوفكم الشهير المسمى باسمك ، فهل لك أن ترافقنا إليه ؟

فتبسم وأطرق حياءً وقال : أنا أفلاطون المذكور .

فلما سمعوا ذلك تعجبوا وقالوا : قد سمعنا بفضلك قبل أن نراك ، ولما رأيناك وجدناك خيراً مما سمعنا بعد أن عرفناك .

ما أجمل الحياء

٥ ـ حكي أن إبراهيم بن المهدى قال : كنت عند الرشيد فإذا برسول من عند (عبد الله بن صالح) ومعه هدية وكتاب، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول : أبرّه الله ، ووصله الله .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، من ذا الذى بالغت فى شكره ؟

قال : ذلك رجل قد خُصّ من الحياء بأوفر حظ، وهو (عبدالله بن صالح)

فقلت : ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟

فدفع إلىّ الكتاب فقرأته فإذا فيه :

« قد دخلت ياأمير المؤمنين بستاناً قد عمرته بنعمتك ، وأينعت فواكهه، فأخذت من كل ذلك شيئاً ، وهيأته فى أطباق قضبان ، ووجهت به إلى أمير المؤمنين ، ليشملنى بدعائه ، كما وصل إلىّ من عطائه » .

قلت : والله ياأمير المؤمنين مافى الكتاب شىء يستحق هذا الثناء .

قال : جهلت والله يا إبراهيم . أما تراه كيف وصف الأطباق بالقضبان ؟ ولم يذكر الخيزران (حياءً وأدباً منه) إذ هو اسم أمى وكانت تدعى به .

فانظر كيف استجلب رضا أمير المؤمنين بحيائه وذكائه ؟

الحياء خير من المال

٦ ـ غضب هشام على رجل من أشراف الناس فشتمه ، فوبخه الرجل ، وقال له :

أما تستحيي أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه ؟

فأطرق هشام واستحيىٰ وقال له : اقتص.

قال : إذاً أنا سفيه مثلك .

فقال : خذ عن ذلك عوضاً من المال .

قال : ما كنت لأفعل .

فقال : فهبها لله .

قال : هى لله ، ثم لك .

فنكس هشام رأسه وقال : والله لا أعود لمثلها أبداً .

أمثلة فى المزاح الممدوح

١ – من أمثلة المزاح الممدوح مارواه الترمذى مرسلاً قال :

أتت النبى صلى الله عليه وسلم عجوز فقال : لن تدخل الجنة عجوز ، فبكت فقال : إنك لست بعجوز يومئذ .

قال الله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً . عُرباً أتراباً . لأصحاب اليمين .

٢ – وما رواه (ابن أبى الدنيا) قال : جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقال لها (أم أيمن) ، فقالت له : إن زوجى يدعوك . قال : ومَن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض ؟ قالت : ما بعينه بياض ! قال بلى بعينه بياض . فقالت: لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا و بعينيه بياض ، وأراد به البياض المحيط بالحدقه .

٣ – وما رواه أبو داود والترمذى وصححه قال : جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله احملنى على بعير . فقال : بل نحملك على ابن البعير فقالت . ما أصنع به ؟ إنه لا يحملنى . فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بعير إلا وهو ابن بعير .

٤ – وما رواه (ابن بكار) : من أن الضحاك بن أبى سفيان الكلابى كان رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعه النبى ﷺ قال : إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء (يريد عائشة ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب) أفلا أنزل لك عن

إحداهما فتتزوجها ؟ وعائشة جالسة تسمع فقالت : أهى أحسن أم أنت ؟ فقال : بل أنا أحسن وأكرم ، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه (لأنه كان دميماً قبيح الوجه) .

٥ ـ وما رواه ابن ماجة والحاكم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال مرةً لصهيب : أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله ، فتبسم ﷺ حتى بدت نواجذه .

(السمير الواعظ)

يقول حضرة مؤلف كتاب السمير الواعظ فى بيان المزاح الممدوح :

هذه طائفة من الأحاديث النبوية ترشد إلى نوع المزاح الممدوح ، وتشير إلى النكات الأدبية التى لا فحش فيها ؛ لأن فيها تطييباً للنفس ، ومسرةً من غير أن يترتب عليها ضرر ، أو يخالف قواعد الدين ؛ فللمزاح أساليب ومواضع خاصة ، فإن أخرجته عن موضعه وجاوزت حده كنت خليقاً أن يذهب عنك البهاء والهيبة ، وأن يبعث فى منزلتك عند الناس خفة حال ، ورقة شأن ، ويجرئ عليك السفهاء .

أنا لا أريد أن يكون المرء جافى الطبع ، ولا قاسى القلب ، ولا مكتئباً ، ولا حزيناً دائماً ، ولكنى أحب له (كما أحب لنفسى) أن يكون من أهل الحياء قبل أن يكون (كما يقول هو) من الظرفاء .

حكايات وأمثال فى ذم المزاح

سوء عاقبة المزاح

١ ـ طلب أحد الملوك من بعض وزرائه أن يحضر له رجلاً يكون عالماً بحقائق الأمور ممن عركوا الزمان، يسامره إذا خلا، ويصحبه إذا سافر؛ فأحضر له رجلاً نال الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من الفضل والأدب، مع لطف المسامرة، فأجله الملك وعظمه، ورتب له أموالا وفيرة، وعطايا كثيرة، وصادف أن دخل عليه يوماً، فوجده يمزح مع بعض أصحابه مزاحا مرذولاً، فنفر منه، وأبعده عنه، ونزع منه ثوب النعمة التى كان مغموراً بها، بسبب مزاحه، وقلة حيائه.

كثرة المزاح تورث الذل والهوان

٢ ـ دخل بعض شعراء الهند على أمير فمدحه بأبيات نفيسة، فقال له الأمير: تقدم يابن الملعون.

فقال الشاعر: وما معنى ابن الملعون؟

قال الأمير: هذه بلغة العرب كناية عمن له قدر جليل، وصيت شهير، ومقام كبير

قال الشاعر: إذا كان الأمر كذلك، فأنت أيها الأمير أكبر ابن ملعون فى الدنيا

فخجل الأمير، وعلم أن مزاحه أورثه الذل والهوان.

المزاح يخجل المرء و يوقعه فى الأتراح

٣ ـ سافر صانعان معاً إلى قرية ليشتغلا بها ، فاجتازا بستاناً فى طرف القرية فقال أحدهما للآخر : انظر ياأخى إلى هذه الكُرُنبة فما أحسنها، وما رأيت قط مثلها لضخامتها !

فأجابه الثانى ـ وكان يحب المزاح بنوع خاص ـ عجباً يا أخى لست أرى فى هذه الكرنبة شيئاً غير اعتيادى ، لأنى مدة أسفارى رأيت كرنبة أكبر من هذا البيت الذى تشاهده أمامك

فقال له الأول ـ وكان نحاساً ـ هذا لا يخلو من المبالغة، ومع ذلك أذكر أننى صنعت قدراً من النحاس أكبر من كنيسة هذه القرية

فصاح الثانى : بالله عليك ياأخى اشرح لى القصد من عمل تلك القدر الواسعة ؟

فأجابه : تطبخ فيها كرنبتك الضخمة

فخجل الصانع الأول خجلاً شديداً وقال : الآن فهمت معنى كلامك أنك لا تكذب ؛ بل تريد أن تمزح ، ولقد أفحمتنى وأعجزتنى عن الجواب

حكايات وأمثال فى فضل التواضع

تواضع رسول الله صلى الله عليـه وسلم

١ ـ حكى أن رسول الله ﷺ خرج إلى السوق ومعه ثمانية دراهم ؛ فإذا بامرأة على الطريق تبكى فقال لها : مايبكيك ؟

فقالت : بعثنى أهلى بدرهمين لأشترى بهما حاجتهم فأضللتهما «أى فقدتهما» فأعطاها الرسول درهمين ، ومضى بستة دراهم ، فاشترى منهـا قميصاً ولبسه وانصرف ، فإذا بشيخ من المسلمين عار وهو ينادى : من كسانى كساه الله من خضر الجنة ، فلم يتمالك ﷺ أن تجرد وألقى عليه القميص، ثم رجع إلى السوق فاشترى بدرهمين قميصاً آخر فلبسه ، ثم رجع و إذا بالمرأة التى تركها تبكى فقال لها : مايبكيك ؟

فقالت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، طالت غيبتى عن أهلى وأخشى عقوبتهم ، فما كان من كرم أخلاقه ﷺ إلا أن قال لها : الحقى بأهلك

وجعل يتبعها حتى أتت أحـد دور بعض الأنصار و إذا بالدار ليس فيها إلا النسـاء .

فقال عليه الصلاة والسلام : السلام عليـكن ورحمة الله و بركاته

فسمع النساء صوته ﷺ فعرفنه ولم يجبن ، ثم أعاد الثانية ، ثم الثالثة رافعاً صوته .

فقلن بأجمعهن : السـلام عليك يارسول الله ، ورحمة الله و بركاته ، بآبائنا

وأمهاتنا أنت يارسول الله

فقال ﷺ : أما سمعتن ابتداء سلامى ؟

فقلن : بلى يارسول الله ؛ ولكننا أحببنا أن نكثر لأنفسنا وذرياتنا من بركة تسليمك علينا .

فقال ﷺ : إن جاريتكن هذه أبطأت عنكن وخشيت العقوبة، فهبوا لى عقوبتها .

فقلن : قد شفعناك فيها يارسول الله ، ووهبنا عقوبتها ، وقد أعتقناها لممشاها معك ، فهى حرّة لوجه الله تعالى .

فانصرف ﷺ وهو يقول : مارأيت ثمانية أعظم بركة من هذه الثمانية ، أمّن الله بها خائفاً ، وكسا بها عارياً ، وأعتق بها نسمة ، وما من مسلم يكسو مسلماً ، إلا كان فى حفظ الله ، مادامت عليه منه رقعة .

فانظر إلى تواضع الرسول ﷺ حيث سار معها إلى أهلها خوفاً عليها من العقوبة مع فخامة قدره ﷺ . فجزاه الله عن أمته خيراً « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » .

مثال آخر من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم

٢ ــ روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: دخلت السوق (عكاظ) مع النبي ﷺ فاشترى سراويل ، وكان النبي يقول للرجل البائع : زِن وأرجح

« وكان من عادة العرب أن يتبايعوا بالبدل، يأخذ أحدهم السراويل ويعطى بدلها التمر أو الشعير » .

فقال الرجل لأبي هريرة : مَن هذا الذي يعطيني العطاء الجزيل ؟ أمَلكٌ هو ؟ ووثب إلى يد النبي يقبلها ، فجذب النبي يده منه وقال : هكذا تفعل الأعاجم بملوكها « لما في تقبيل اليد من ظهور المذلة والخضوع لغير الله » ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم .

ثم أخذ السراويل ، فتقدم أبو هريرة ليحملها عنه، فقال له النبي ﷺ : خلِّ عنك ، (صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله)

٣ ـ كان رسول الله المثل الأعلى في التواضع ومكارم الأخلاق فقد روى الحاكم بسند صحيح أنه أتى للنبي ﷺ برجل فأرعد من هيبته . فقال : هوِّن عليك، فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد (أي اللحم اليابس الجاف) لأن قريشا كانت تجفف اللحم وتخزنه لوقت الحاجة .

« وإنما قال النبي ﷺ ذلك حسماً لمواد الكبر ، وقطعاً لذرائع الإعجاب، وكسراً لإسراف النفس ، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء » .

٤ ـ وروى الترمذي والنسائي وابن ماجة أن ابن عامر رضي الله عنه قال: رأيته ﷺ يرمي الجمرة على ناقة صهباء لا طرد ولا ضرب ، ولا إليك إليك.

« معناه : أنه ﷺ ، مع كونه سيد المرسلين وإمامهم الأعظم كان يرمي (جمرة العقبة) كآحاد الناس ، فلا يخلون له الطريق ، ولا يطردون الناس ولا يضربونهم ، ولا يقولون لهم : تنحوا إلى جهة ، وذلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام أكبر تواضع » .

٥ ـ وروى أبو داود والنسائي أنه ﷺ كان يجلس بين أصحابه مختلطا

بهم كأنه أحدهم، فيأتى الغريب فلايدرى أيهم هو حتى يسأل عنه ؟ حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب ، فبنوا له دكاناً (دكة أو مصطبة) من طين فكان يجلس عليه .

٦ ــ وقدم إليه عليه الصلاة والسلام وهو بالمدينة عدىٌّ بن حاتم (وكان نصرانيا) فأخذه إلى بيته ، و بينما هما فى الطريق إذ قابلتْ رسول الله ﷺ عجوز ضعيفة فاستوقفته زمناً طويلاً تسأله عن بعض أمورها فوقف لها حتى انتهت ، فأعجب عدىٌّ بتواضعه . ولما وصلا بيت الرسول قدم إليه وسادة ليجلس عليها وجلس النبى على الأرض ، وصار يحدث ضيفه حتى اقتنع بأنه رسول الله حقاً ، فآمن به وصدقه .

٧ ــ وحج عليه الصلاة والسلام على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال : اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة .

تواضع أبى بكر الصديق رضى الله عنه وزهده

١ ــ كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعاً فى أخلاقه ، ولباسه ومطعمه ؛ وكان لبسه فى خلافته : الشملة ، والعباءة .

وقدم إليه زعماء العرب وأشرافها ، وملوك اليمن ، وعليهم الحُلل والحِبَرَ وبُرود الوشى المثقل بالذهب ، والتيجان ؛ فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد ، والتواضع ، والنسك ، وماهو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن (ذو الكلاع)

ملك حمير، ومعه ألف عبد دون من كان من عشيرته، وعليه التاج وما وصفنا من البُرود والحلل، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيّه، حتى إنه رُئى يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفه جلد شاة، ففزعت عشيرته لذلك وقالوا: قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب.

قال: أفأردتم منى أن أكون ملكاً جباراً فى الجاهلية، جباراً فى الإسلام؟ لاوالله لا تكون طاعة الربّ إلا بالتواضع لله، والزهد فى هذه الدنيا، فتواضعت الملوك، ومَن ورد عليه من الوفود بعد التكبر، وتذللوا بعد التجبر.

« للمسعودى »

٢ ـ قال عمر بن إسحاق: قال علماء السير: كان أبو بكر يحلب للحىّ أغنامهم فلما بويع بالخلافة، قالت جارية من الحىّ: الآن من يحلب لنا الغنم؟ فسمعها أبو بكر، فقال: لأحلبنها لكم، وأرجو ألَّا يغيرنى مادخلت فيه من الخلافة عن خلق كنت فيه ـ فكان يحلب لهم، رحمه الله وأجزل ثوابه.

٣ ـ عن عطاء بن السائب قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر فيها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا له:

إلى أين تريد ياخليفة رسول الله؟ قال: السوق.

قالا له: ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمِن أين أطعم عيالى؟

قالا له: انطلق، حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة، وما كسبوه فى الرأس والبطن. «محاسن الآثار»

٤ ـ كان النبي ﷺ قد جهز قبل وفاته جيشاً لمحاربة الروم بقيادة أسامة

ابن زيد . ولكنه مات قبل أن يخرج الجيش ، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفذ هذا الجيش وشيعه ماشياً وأسامة راكباً ، فقال له أسامة : لتركبن أو لأنزلن ؟

فقال : والله لا نزلتَ ولا ركبتُ ، وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله

٥ ــ وحكى الأصمعي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا مُدح قال : اللّهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم . اللّهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

تواضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه

١ ــ من قصص التواضع المأثورة ما روى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ على (المعلّى بن الجارود) فلقيته امرأة من قريش فقالت له : يا عُمر ، فوقف لها .

فقالت له : كنا نعرفك مرّةً عُميراً ، ثم صرت بعد عُمير عُمر ، ثم صرت بعد عُمر أمير المؤمنين ، فاتق الله يابن الخطاب ، فانظر في أمور الناس ، فإنه من خاف الوعيد ، قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت ، خشي الفوت .

فقال لها المُعلى : إيهاً إليك يا أمة الله ، لقد أبكيت أمير المؤمنين .

فقال له عمر : أتدري من هذه ؟ ويحك !

هذه (خَوَلة بنت حكيم) التي سمع الله قولها من تحت سمائه فعمر أحرى أن يسمع قولها ، ويقتدي بها .

تواضع عمر بن الخطاب ورأفته برعيته

٢ ـ قال عبد الرحمن بن عوف : دعانى عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال : نزل بباب المدينة قافلة ، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم ، فمضيت معه ، فلما وصلنا قال : نَمْ أنتَ ، ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

« للغزالى »

أمثلة أخرى

٣ ـ بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت الحرام إذ سمع رجلاً أعرابيًّا يدعو ربَّهُ ويقول : اللّهم اجعلنى من القليل ، فعجب عمر لهذا الدعاء وقال : إلىّ بالرجل ؛ فجئ به ، فقال له : يا أعرابى إن دعاءك هذا لم أسمعه إلاّ اليوم فما معناه ؟

قال الأعرابى : إنك تحفظه يا أمير المؤمنين ، فازداد عجب عُمرَ وقال له : وكيف أنى أحفظه ؟

قال : ألم تقرأ فى كتاب الله العزيز : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » فأنا أدعوه أن يجعلنى من الشاكرين .

فقال عُمر : صدقت ، اذهب ، كل الناس أعلم من عمر .

٤ ـ روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نادى : الصلاة جامعة .

فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم

فيقبض لى القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأى يوم . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : والله يا أمير المؤمنين مازدت على أن قصرت بنفسك . فقال عمر رضى الله عنه . ويحك يابن عوف إنى خلوت فحدثتنى نفسى . فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها .

٥ — وروى الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قال :

قدم عَلى عمر بن الخطاب وفد من العراق ، فقدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجز بعباءته (ملتف بها) يهنأ بعيراً من أجل الصدقة (أى يدهنه بالهناء وهو القطران) فقال : يا أحنف دع ثيابك وسلم . فأعِن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين. فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلاَّ تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ فقال عمر :

يا ابن فلان ، وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى من أمر المسلمين شيئا فهو عبد للمسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة .

٦ — وكان عمر رضى الله عنه يقوم بنفسه فيشارف الأسواق ، ويراقب المكاييل والموازين ، ويأمر بإماطة الأذى عن الطريق .

قال المسيب بن دارم : رأيت عمر بن الخطاب يضرب حمَّالاً ويقول : حملت جملك ما لا يطيق .

ومع كل هذا التواضع والرحمة بالضعفاء كان عمر يكره عدم النظام ،

و يحب أن يرى كل شيء فى موضعه .

٧ ـ روى عن أبى ساعدة الهذلى قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار المتجولين بدرة (مقرعة) إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم و يقول : لا تضيقوا علينا السبل (الطرق) .

« هذا هو النظام الذى يفعله الشرطة (البوليس) اليوم من منع الباعة من الوقوف بالشوارع العامة وحملهم على التجوال حتى لا يزاحموا المارة و يعيقوا حركة المرور » .

٨ ـ قد بلغ من تواضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن البشير بفتح فارس وانتصار المسلمين كان يسير بجوار بعيره وهو لا يعلم أنه أمير المؤمنين ، فكان يقص عليه أخبار الفتح ، وهو يظن أنه فرد من الرعية ، وعمر يعلو البشر وجهه و يسرع الخطا حتى دخل المدينة فاجتمع عليه الناس يحيونه و ينعتونه بالإمارة . فخجل الرجل خجلا شديداً فقال له : لا بأس عليك لقد ملأت قلبى سروراً .

٩ ـ ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب عظيم فأعرض عنه عمر فجعل يمشى إلى جنبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه وقال : يامعاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ! قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأنا فى بلاد لا تمتنع الجواسيس ولا بد لهم ما يردعهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى

عنه انتهيت . قال : إن كان الذى قلت حقاً فإنه رأىأريب ،وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب ، فلا آمرك ولا أنهاك عنه .

تواضع الحسن بن على رضى الله عنهما

١ ـ روى أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق ، وقد نثروا كسراً على الأرض ، وهو على بغلته . فلما مرّ بهم سلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، وقالوا : هَلُمَّ الغداء يابن بنت رسول الله ! فقال : نعم إن الله لا يحب المستكبرين ، ثم ثنى وركه فنزل عن دابته ، وقعد معهم على الأرض ، وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب « عوارف المعارف للسهروردى »

٢ ـ ويحكى أنه مرّ بصبيان يأكلون كسراً من الخبز فاستضافوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم أنواعاً وكساهم وقال : اليد لهم ؛ لأنهم لم يجدوا غير ماأطعمونى ، ونحن نجد كثيراً مما أعطيناهم «إسعاف الراغبين»

تواضع عمر بن عبد العزيز

١ ـ عن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوماً : روحينى حتى أنام ، فروحته فنام ، فغلبها النوم فنامت . فلما انتبه أخذ المروحة يروحها . فلما انتبهت ورأته يروحها صاحت وقامت مذعورة فقال لها عمر : لا تخافى إنما أنت بشر مثلى أصابك من الحرّ ما أصابنى ، فأحببت أن أروحك كما روحتنى . « الروض الفائق »

تواضع هارون الرشيد إجلالاً للعلم

الرشيد يصب الماء على يدى أبى معاوية الضرير *

كان هارون الرشيد يتواضع للعلماء .

قال أبو معاوية الضرير (وكان من أعلم الناس) :

أكلت مع الرشيد يوماً فصبّ على يدى الماء رجل .

ثم قال لى : يا أبا معاوية ، أتدرى من صبّ الماء على يديك ؟

فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين .

قال : أنا .

فقلت : ياأمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم .

قال : نعم . « الفخرى »

تواضع الأمين والمأمون لمؤدبهما

كان الكسائى يؤدب الأمين والمأمون (ابنَىْ هارون الرشيد) فأراد يوما النهوض من عندهما ، فابتدرا إلى نعله ليقدما له ، فتنازعا أيهما يُقدّمها له ؟ فاصطلحا على أن يُقدم كلٌّ واحد منهما فردة منها ؛ فلما رفع الخبر إلى الرشيد وجّه إلى الكسائى مَن يحضره فلمّا دخل عليه قال له : مَن أعزّ الناس ؟

قال : لا أعلم أعزّ من أمير المؤمنين .

قال : بلى ! إن أعزّ الناس مَن إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه له وليّا عهد المسلمين حتى يرضى كلّ منهما أن يُقدِّم له فردة منها .

فأخذ الكسائى يعتذر حاسباً أنه أخطأ .

فقال الرشيد : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً ، وعتباً ، ولألزمتك ذنباً ، وما وضع مافعلا من شرفهما ، بل رفع من قدرهما ، و بيَّن عن جوهرهما ولقد تبينت مخيلة الفراسة بفعلهما .

فليس يكبر المرء ، وإن كان كبيراً عن ثلاث : تواضعه لسلطانه ، ولوالديه ولمعلمه .

ثم قال : وقد عوضتهما ممَّا فعلا عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن تأديبك لهما ، فهكذا يكون عطاء الملوك عن كتاب المطالعة للسيدة نبوية موسى

تواضع المأمون

عن القاضى يحيىٰ بن أكثم قال :

بتُّ ليلة عند المأمون فى جوف الليل ، فقمت لأشرب ماء فرآنى المأمون

فقال : مالَك يا يحيىٰ ؟

فقلت : ياأمير المؤمنين أنا والله عطشان .

قال : ارجع إلى موضعك .

فقام والله إلى حمل الماء فجاءنى بكوز ماء ، وقام على رأسى ، فقال : اشرب يا يحيىٰ ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين هلا وصيف أو وصيفات .

قال : إنهم نيام .

قلت : كنت أنا أقوم للشرب .

فقال : لؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

ثم قال : يا يحيىٰ .

فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : ألا أحدثك .

قلت : بلىٰ ياأمير المؤمنين .

قال : حدثنى الرشيد ، قال: حدثنى المهدى قال : حدثنى المنصور عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« سيد القوم خادمهم » .

الرشيد والبهلول

لما بلغ الرشيد الكوفة قاصداً الحج خرج أهل الكوفة للنظر إليه وهو فى هودج عال ، فنادى البهلول : ياهارون ، ياهارون ، فقال: مَن المجترئُ علينا ؟

فقيل : هو البهلول ، فرفع السجف ، فقال البهلول : ياأمير المؤمنين روى عن عبد الله العامرى قال : رأيت رسول الله ﷺ سائراً إلى الحج لا ضرب ولا طرد ولا قال : إليك . إليك .

وتواضعك ياأمير المؤمنين فى سفرك هذا خير من تكبرك .

فبكى الرشيد حتى جرت دموعه على الأرض وقال : أحسنت يابهلول زدنا فقال : أيما رجل آتاه الله مالاً وجمالاً وسلطاناً ، فأنفق ماله ، وعف جماله ،

وعدل فى سلطانه ، كتب فى ديوان الله من الأبرار

فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بجائزة .

فقال : لا حاجة لى بها ، ردها إلى من أخذتها منه .

قال : فنجرى عليك رزقاً يقوم بك .

فرفع البهلول طرفه إلى السماء وقال : ياأمير المؤمنين أنا وأنت عيال الله ، فمن المحال أن يذكرك وينسانى .

تواضع المعتصم بالله

حكى أن المعتصم بالله انفرد عن أصحابه فى يوم ممطر فبينما هو يمشى إذ رأى شيخاً معه حمار عليه شوك وقد توحل الحمار ووقع الحمل ، وهو ينتظر من يمرّ عليه ويساعده على رفع الحمل فنزل المعتصم بالله عن دابته وخلص الحمار ، ورفع معه الحمل عليه ، ثم لحقه أصحابه فأمر لصاحب الحمل بأربعة آلاف درهم .

فهكذا يكون تواضع الملوك وحسن صنيعهم .

قصص وأمثال فى العجب والكبر

الغنى المتكبر ، والفقير المتواضع

١ ـ أتى فقير النبي ﷺ وعنده أحد الأغنياء ، فكف الغنى ثيابه عنه فقال له رسول الله : ما حملك على ماصنعت ؟ أخشيت أن يلصق فقره بك أو يلصق غناك به ؟

فقال : يارسول الله أما إذا قلت هذا فله نصف مالى .

فقال للفقير : أتقبل منه ؟ قال : لا . قال : ولِمَ ؟

قال : أخاف أن يدخلنى مادخله من عزة الكبرياء .

٢ ـ التقى عبد الله بن عَمرو وعبد الله بن عُمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عَمرو وأقام ابن عمر يبكى : فقالوا : مايبكيك ياأبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا (يعنى عبد الله بن عمر) زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه) .

٣ ـ وقيل : أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً وقال لمعاوية : اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له . فخرج معه معاوية فى هاجرة شديدة ، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس فقال له : اردفنى خلفك على ناقتك ؟ قال : لست من أرداف الملوك قال : فأعطنى نعليك . قال : مابخل يمنعنى ياابن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلى ، ولكن امش فى ظل ناقتى فحسبك بها شرفاً .

وقيل : إنه لحق زمان معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه

٤ ــ وعن عُمر بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكباً بغلة و بين يديه غلمان و إذا هم يعنفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر فجعلت أنظر إليه وأتأمل ، فقال لى : مالك تنظر إلىّ ؟ فقلت له : شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة، فقال له : أنا ذلك الرجل. فقلت : مافعل الله بك؟

فقال : إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس .

٥ ــ وكان ابن عوينة من أقبح الناس كبراً . روى أنه قال لغلامه: اسقنى ماء فقال : نعم . فقال إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا . اصفعوه فصفع، ودعا أكارا فكلمه : فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته .

٦ ــ وقال (المسرور بن هند) لرجل : أتعرفنى ؟ قال : لا .

قال : أنا المسرور بن هند . قال : ماأعرفك . فقال : تعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر .

٧ ــ ورأى (محمد بن واسع) ولده يختال فدعاه وقال :

أتدرى مَن أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتى درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله .

المعجب بآبائه

٨ ــ فتًى من الأتراك كان له حسب وكان يجر الذيلَ فخراً على العرب

يعدّد بين الناس فضل جدوده ... ويذكر تاريخ المناصب والرتب
ويحسب أن المجد فى بيته له ... تراث وأن المجد يورَث بالنسب
فما زال مختالًا يبدد إرثه ... فلا مجد مُعتاض ولا مال مكتسب
إلى أن مضى عصر الشباب وعزه ... ولم ينتفع منه بعلم ولا أدب
وأصبح مخفوض الجناح كسيرَه ... وكم جاهل مَجد الجدود به ذهب
إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبةً ... من المثمرات اعتدّه الناس فى الحطب

(آداب العرب)

الكبر والعجب ، يذهبان بما وهب

٩ ـ كان عُمارة بن حمزة مشهوراً بالكبر والإعجاب بالنفس. فدخل على المهدى يوما ، ولما اطمأن به المقام ، نهض رجل فى المجلس (كان المهدى أوعز إليه ليتهكم بعمارة)

فقال : مظلوم ياأمير المؤمنين

فقال المهدى : ومَن ظالمك

فقال الرجل: عمارة هذا غصبنى ضيعتى (وكانت من أحسن ضياع عمارة)

فقال عُمارة: ياأمير المؤمنين ليس هذا خصمى، فإن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لى فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلس شرفنى به أمير المؤمنين .

فلما انصرف المجلس ، سأل عمارة عن صفة الرجل ، وما كان لباسه وأين

كان موضع جلوسه ؟

وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام فى ساعة واحدة . الخطأ أهون منه .

لا تمش مشية الخيلاء

١٠ ـ حكى أن (مطرف بن عبد الله بن الشخير) نظر إلى المهلب بن أبى صفرة وعليه حُلة يسحبها ويمشى الخُيَلاء .

فقال : ياأبا عبد الله ماهذه المشية التى يبغضها الله ورسوله ؟

فقال المهلب : أما تعرفنى ؟

فقال : بل أعرفك . أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة .

فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعراً فقال :

« عجبت من معجب بصورته — وكان بالأمس نطفة مذره »
« وفى غد بعد حسن صورته — يصير فى اللحد جيفة قذره »
« وهو على تيهه ونخوته — مابين ثوبيه يحمل العذره »

(أدب الدنيا والدين)

١١ ـ وقال الواقدى: دخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتبختر فى مشيته، فقال له يحيى: ياأبا عبد الله إن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء والعلم . فيالها من حسنة غطت على عيبين عظيمين، ويالها

من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين ، ثم أومأ إليه بالجلوس وقال : احفظه يا أبا عبد الله ، فإنه أدب كبير ، أخذناه عن العلماء .

أبو العتاهية وابن الخليفة الرشيد

١٢ ـ مرّ القاسم بن الرشيد فى موكب عظيم . وكان من أتْيَه الناس ، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاما له ، ولم يزل قائماً حتى جاوزه ، فجاز ولم يلتفت إليه ، فقال أبو العتاهية :

« يتيه ابن آدم من جهله كأن رحى الموت لا تطحنه »

فسمعه بعض من فى موكبه ، فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبى العتاهية وضربه مائة مقرعة وقال له : يابن الفاعلة أتعرض بى فى مثل ذلك الموضع ! وحبسه فى داره ، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر هذه الأبيات وكانت توجه له :

« حتى متى ذو التيه فى تيهه أصلحه الله وعافاه »
« يتيه أهل التيه من جهلهم وهم يموتون وإن تاهوا »
« من طلب العز ليبقى به فإن عز المرء تقواه »
« لم يعتصم بالله مِن خَلْقه من ليس يرجوه ويخشاه »

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه – وكانت تميل إليه ـ فرثت له وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ، ووصله وأطلقه ، ثم لم يرض عن القاسم حتى بره وأدناه واعتذر إليه (الحديقة)

من تكبر كان نصيبه الخذلان

١٣ ـ شاور (قتيبة بن مسلم) وزراءه فى رجل يؤمره على جيش أراد أن يرسله إلى بعض من يليه ممن لم ينقادوا اه

فقيل له : هل لك فى فلان ؟

فقال : ذلك ذو كِبر ومن تكبر أعجب برأيه ، ومن أعجب برأيه لم يشاور نصحاءه ، ومن اتصف بالإعجاب كان من الرشد بعيداً ، ومن الخذلان قريباً ، ومن تكبر عن المعقول والمنقول احتقر عدوّه ، ومن احتقر عدوّه قلّ احتراسه منه ، ومن قل احتراسه منه كثر عثاره ، وما رأيت محاربا تكبر على عدوه إلا كان مخذولا

التفاخر بالباطل

١٤ ـ فاخر بعضهم شيشرون الخطيب بعلوّ نسبه

فقال له شيشرون : نعم إن قومك من قومى ، ولكن أنا رأس قومى ، وأنت ذنب قومك وأنشد :

« ما بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى ارتفعت لا بجدودى »

وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل ملة على أن قدر كل إنسان وقيمته بقدر علمه وعمله .

قال الإمام على كرم الله وجهه . (قيمة كل امرئ ما يحسنه)

وقال بعض الحكماء : لا يكون الشرف بالنسب ، بل بالعلم والأدب

ألا ترى إلى الشقيقين وكيف أصبح أحدهما أشرف من الآخر ، فلو كان من قبل النسب والأصل ، لما كان لأحد منهما فضل على صاحبه ؛ لأن نسبهما وأصلهما واحد ؛ ولكن ذلك الخلاف ناشىء من اختلافهما فى درجة العلم والأدب

لا قيمة للمتكبر

١٥ ــ مضى فلاح ذات يوم ليتفقّد حالة حقله ، وكان معه ابنه الصّغير ، فقال الولد العديم الخبرة لأبيه : انظر ياأبت كيف أن سيقان القمح ترفع رءوسها عالية ، فيظهر لى أنها جيدة ، أما هذه السيقان التى رءوسها منخفضة فهى أدنى منها .

فجمع أبوه بعض السنابل وقال له : تأمل يا ُبنى ، وانظر إلى هذه السنبلة التى كانت ترفع رأسها متشامخة تجدها فارغة خاوية ، وانظر إلى الأخرى تجد السنبلة التى كانت تخفض رأسها مملوءة قمحاً جيداً .

واعلم يابنىّ أن مثل العالم المتواضع ، والجاهل المتكبر ، كمثل هاتين السنبلتين فالعالم كسنبلة مملوءة بالغلال تحنى رأسها لكثرة ما فيها تواضعاً لله عز وجل ؛ أما الجاهل المتكبر فهو كسنبلة فارغة ترفع رأسها نحو السماء لخفتها وقلة ثمرتها .

فلا تكن يابنى ممن يدّعون العلم وهم مجرّدون منه ، و يبخسون الناس أشياءهم ، ولا تظهر نفسك إلا بما أنت عليه .

الأمير المتكبر والرجل التقى

١٦ ــ كان أمير ماشياً ذات يوم فى موضع منفرداً ما بين المقابر متباهياً بجمال صورته ، ومتعاظما بثروته وغناه ورفعة مقامه ، فصادفه رجل تقى صالح جالس

بجوار مقبرة ، ومشتغل بالتأمل فى رأس ميت موضوعة أمامه .

فدنا الأمير من الرجل وسأله مستهزئاً : قل لى أيها الساذج لأى سبب تتأمل فى هذه الجمجمة بكل انتباه ؟ وما الذى يا ترى تستطيع أن تجد فيها من العجب ؟

فنظر إليه الرجل الصالح التقى بوجه عبوس وقال له : إنى أفحص هذه الجمجمة لأعرف إذا كانت رأس أمير أو حقير ، أو رأس كبير ، أو صغير ، وأنشد قول الشاعر العامى : (وإن كان ركيكا إلا أنه ينطبق على الواقع) .

« قليل من الزاد يكفيك   تعيش ونفسك عفيفة »
« بكره رسول الموت يأتيك   ورأسك تساوى رأس الخليفة »

فاتعظ الأمير ، وتنازل عن عظمته وكبريائه وقال : كفى بالموت واعظاً .

ابن العمدة المغرور
وابن الطبال المشهور

كان رجل من أهالى الريف صناعته الطبل والزمر فى أفراح العمد وخلافهم . وقد أحسن تربية ابنه وتعليمه ، حتى وصل باجتهاده واقتصاده إلى أن ملك نحو العشرين فداناً ببلدته ، وصار من أغنيائها ، وساعدته المقادير والظروف حتى أصبح عمدة البلدة بعد وفاة عمدتها ، حيث وقع اختيار الأهالى عليه لاستقامته ونزاهته ، وقد وقع بينه وبين ابن العمدة المتوفى حادثة جديرة بالذكر وهى :

أن ابن العمدة المغرور بنفسه ، والذى أضاع ثروة أبيــه فى اللهو والبطالة والمفاسد ، تأخر عن دفع المال والخفر ؛ فأرسل إليه العمدة الحالى أحد الخفراء لاستدعائه ومطالبته بالمستحق عليه ، فأبى الذهاب إليه استكباراً وتعاظماً ، وقال للخفير : أنا لاأذهب إلى ابن الطبال الحقير .

فذهب الخفير وأبلغ العمدة ذلك ، فكتب بلاغاً ضــده إلى حضرة مأمور المركز مستشهداً بالخفير ومن كان حاضراً معه ؛ فاستحضر المأمور ابن العمدة المغرور ؛ وابن الطبال المشهور ، والشهود ، وأخذ يحقق هذا البلاغ ، فاعترف ابن العمدة بماقاله وزاد عليه بأنه لايجوز لمثلى أن يذهب لرجل كان بالأمس أبوه طبالاً وزماراً فى فرحى ، وأنا ابن العمدة فلان ،فأجابه ابن الطبال، بكل تواضع وإجلال : نعم ، لاأنكر أن أبى كان طبالاً وزماراً ، وإذا بعثــه الله من مرقده اليوم ، يقوم ويرقص طرباً ، ويزمر فرحاً مسروراً برؤية ابنــه عمدةً للبلد ؛ أما حضرة المرحوم والدك عمدتنا السابق ، فإذا خرج من قبره يقوم ، وعلى رأسه عصابة سوداء ، لاطماً خديه بالطين والتراب ، حزناً وأسفاً على ما أصاب بيته من الخراب ، وما حلّ بابنــه من العذاب والعقاب ، فأخجله وأسكته ، وحكم المأمور على ابن العمدة بالحبس ، أما ابن الطبال فرجع مرفوع الرأس ، مسرور النفس .

الغرور بالظاهر

حكى أنه بينما كان غلام يتنزه فى حديقة ، إذ رأى نحلةً فأعجبه لونها الذهبى وأراد أن يصطادها ، ومدّ يده نحوها فلم تكد تصل إليها حتى طارت ، وطلبت

لنفسها النجاة ، ففرّ الغلام وراءها ، وقد غره حسن الظاهر ، وهى تطير من مكان لآخر ، حتى تعبت ووقعت على وردة واختبأت فى كمها ، فتبعها الغلام وهو يمشى على أطراف أصابعه حتى صار على قيد خطوة منها فمدّ يده وقبض على الوردة والنحلة معاً .

فما كان من هذه النحلة إلاّ أنها أخرجت ذنبها وأفرغته فى كف الغلام ولدغته ، فصاح المسكين من شدة الألم ، ووقع على الأرض مصروعاً مغشياً عليه .

فهكذا تكون عاقبة الغرور بالظواهر ، والاستسلام لمحاسنها ، وعدم التفكر فى نفعها أو ضررها . فاحذروا عاقبة ما تجهلونه ، ولا يغرنكم حسن ظاهره .

لا يغرنكم بالله الغرور

قال أحد العُبّاد الزاهدين : كنت فيما مضى من أيام الشباب ورعاً تقيًّا ، طاهر النفس نقياً ، أصوم النهار ، وأقوم الليل ، وأقضى زمنى فى التسبيح بحمد الله الواحد القهار ؛ فبينما أنا ذات ليلة جالس مع والدى ، والكتاب الكريم بين يدى ، وقد أخذ النوم بمعاقد أجفان من كانوا بقربنا ، وإذا بى أشعر بالعجب قد داخلنى لقيامى ونوم من حولى فقلت لأبى :

أليس فى هؤلاء رجل رَشيد ، يحيى الليل بالركوع والسجود ؟ هل أصابتهم غشاوة ، أم خدعتهم تلك الحياة حتى فضلوا النوم والهجوع ، على القيام للصلاة والركوع ؟ فنظر إلىّ والدى نظر الحكيم ، وأجابنى إجابة الخبير العليم : ياهذا حبّذا لو كنت مثلهم ، ونمت نومهم ، فإن الله يحب القعود عن عبادته ،

و يبغض منك القيام لتأ كل لحم عبيده ، واعلم ياولدى ، أن الادعاء والإعجاب والغرور ، أدوات الدمار والشرور .

و إن عجبك بنفسك يؤدى بك إلى استصغار شأن غيرك ؛ ولو أنك ترى شخصك كما يراك الواحد القدير لرأيته أقل من ذرة ، وأدنأ من تمرة ، ولقد قال تعالى :

« فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ » .

(سورة لقمان)

من ادعى ما ليس فيه
كذبته شواهد الإمتحان

مرَّ رجلان فى أَجَمة كثيرة من الأشجار ، فرأى أحدهما على الأرض آثار أقدام السّباع ، فقال لرفيقه : أخشى أن يخرج علينا سبع فيقتلنا وليس معنا سلاح ندافع به عن أنفسنا .

فقال الآخر : لا تخف ما دمت أنا معك ، وأنت تعلم مبلغ شجاعتى وقوتى، وما كاد يتم كلامه حتى سمعا صوت دب آتيا ، فترك ذلك المدعى المغرور بقوته رفيقه : وجرى نحو شجرة وصعد إلى قمتها هرباً من الدُّب ، وأما الآخر فاستلقى على الأرض وكتم نفسه .

فلما جاء الدُّبُّ دار حوله يشم بدنه فلم يجد فيه نفساً فظن أنه ميت فتركه وانصرف ؛ لأنه لا يأ كل الميتة .

وبعد أن ذهب الدُّبُّ نزل ذلك المدعى عن الشجرة ، وأقبل نحو رفيقه

فى شدة الخجل ، وسأله على سبيل المزاح عما قاله الدُّبُّ فى أُذنه .

فقال الثانى : هذا دُب حكيم ، فلقد أخبرنى أن مادح نفسه كذاب لا يصدق ولا يعتمد عليه ، وقال تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » .

الجندى المدعى

حكى أن شاباً كان متجنداً فى العسكرية ، وآب إلى وطنه سالماً مفتخراً بغزواته ، فسأله من حوله عن الغزوات التى قام بها .

فأجابه : إنى قطعت ذراع عدوٍّى بيدى وحدى .

فسأله بعض السامعين : أما كنت فعلت حسناً لو قطعت عنقه ؟

فأجابه الجندى ضاحكا : قد فعلت ذلك ، وهو مقطوع الرأس ، فضحك الجميع منه ، وعلموا أنه مدّع مغرور .

المتنبي المدعى

ادعى رجل فى أيام المأمون النبوة فقال له المأمون : إن معجزة سيدنا إبراهيم الخليل الإلقاء فى النار ، فنحن نلقيك لنرى حالك .

قال : أريد واحدة أخف من هذه .

قال المأمون : برهان موسى ، أنه ألقى العصا فصارت ثعباناً .

قال : هذا أصعب علىّ من الأولى .

قال المأمون : برهان عيسى ، هو إحياء الموتى .

قال : مكانك وصلت ، أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم وأحييه لكم فى هذه الساعة .

فقال يحيىٰ وزير المأمون : أنا أول من آمن بك ، وصدق بنبوتك .

فضحك المأمون وأجازه .

الإعجاب بالنفس خلل

خطب معاوية خطبةً أعجبته فقال : أيها الناس هل من خلل ؟

فقال رجل من عرض الناس : نعم خلل كخلال المنخل .

فقال : وما هو ؟

فقال إعجابك بها ومدحك إياها .

عاقبة الطيش والغرور

فى صباح نهار من أيام الربيع ذهب أحد الأطفال للتنزه على جانب شاطئ النيل ، فدخل فى حديقة ، وأخذ يقطف زهوراً من البنفسج ليصنع منها باقةً . فلما رآه البستانى ناداه وقال له : يا بنى ابتعد عن هذه الأشجار فإن فيها أفاعى سامة .

فلم يعبأ بنصيحته ، واستمر فى جمع الأزهار .

فبينما هو كذلك وإذا بثعبان وثب عليه ، والتف حول ذراعه ولدغه لدغة مميتةً ، وبعد قليل أمسى هذا المسكين جثة هامدة .

فحقاً من تبع هواه أرداه ، وأوقعه فى الهلاك .

ولقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

حكايات وأمثال فى النفاق

لا كرامة لمنافق

كان رجل يكثر الثناء على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بلسان لا يوافقه القلب

فقال له علىّ رضى الله عنه يوماً ، وقد ألحّ فى الثناء عليه : أنا دون ماتقول وفوق ما فى نفسك

فانظر إلى هذه الفراسة المفترسة لحبّات القلوب .

لا اتفاق على نفاق

ولا وفاء لذى مَين واختلاق

كتب (محمد بن الفرات) أيام وزارته إلى (على بن عيسى صاحبه) يقول له: إنى أستشهد بك (فى المسألة) (وكانت شهادة بغير حق) فأجاب على بقوله: لا تلمنى على نكوصى عن نصرتك (فى شهادة زور) فإنه لا اتفاق على نفاق ، ولا وفاء لذى مَين واختلاق ، وأولى بمن تعدى الحق فى مسرتك إذا رضى ، أن يتعدى الباطل فى إساءتك إذا غضب .

فسكت ، وعلم أنه رجل شريف لا يشهد الزور .

الجواب المليح ، خير من المديح

مدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له :

ياهذا إنه قد نُهى عن مدح الرجل فى وجهه .

فأجاب :

مامدحتك نفاقاً ، ولكن ذكرتك نعم الله عليك ، لتجدد لها شكراً .

فقال له هشام : هذا الجواب المليح ، خير عندى من المديح ، ووصله وأكرمه .

عزيز النفس لا ينافق

لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء ، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال :

يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها .

فقال معاوية للأحنف ورآه ساكتاً :

مالكَ لا تقول يا أبا بحر ؟

فقال الأحنف : أخاف الله تعالى إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت .

فقال معاوية : جزاك الله خيراً عما تقول .

فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل المنافق بالباب وقال له :

يا أبا بحر إنى أعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ؛ ولكن فى أيديهم خزائن الأموال ، فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت .

فقال الأحنف : ياهذا أمسك عليك دينك ، « فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيها » .

« وإذا وليت الأمور لغير أربابها ضاعت » .

حرُّ الضمير لا يتملق لملك أو أمير

١ ـ حكم على أحد الأشقياء فى أيام (لويس الرابع عشر) حكماً نهائياً، فسعى بعض معارفه فى الحصول على العفو عنه من الملك بوساطة نفوذهم الشخصى، فتمكنوا من إقناعه فكتب صورة الأمر بالعفو، وأرسل الملك يستدعى (مُهرداره) أى حامل ختمه ، فحضر وكان على جانب عظيم من عزة النفس وحرية الضمير .

فقال له الملك : هات ختمنا لنختم هـذا الأمر بالعفو ، فأجابه المُهردار : لا ياسيدى الملك ، إن العفو لايجوز على مثل هذا الشقى ، و إذا سألتم جلالتكم ضميركم لأجابكم بما يقول عبدكم الواقف أمامكم .

فقال الملك : أحضر الختم حالاً .

فجاء به مطيعاً بالرغم منه. فتناول الملك الختم وختم الأمر ، ثم أرجعه إليه فأبى أن يمسكه وأعرض عنه قائلاً : لقد تدنس ختمك يامولاى فلا أحمله .

فبهت الملك من جرأته الناشئة عن حرية ضميره ، ثم ألقى الأمر مختوماً فى النار ولم يُبد جوابا ، فتسلم (المهردار) الختم بعد ذلك وقال :

الآن آخذه صاغراً مطيعاً ، لأن النار تطهر كل شىء .

فأعجب الملك بحرية ضميره ، وكافأه على صدقه و إخلاصه .

٢ ـ قيل : إن عبد الملك بن مروان خطب يوماً بالكوفة ، فقام إليه رجل من آل سمعان فقال :

مهلاً يا أمير المؤمنين ، اقض لصاحبي هذا بحقه ثم اخطب .

فقال : وما ذاك ؟

فقال : إن الناس قالوا له ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينهما الكلام .

فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟

فإن قلتم أطيعوا أمرنا ، واقبلوا نصحنا ، فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه ؟

وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلاَم قلدناكم أزمَّة أمورنا ، وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟ أوَ ما تعلمون أن منا مَن هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظات .

فإن كانت الإمامة قد عجزتم عن إقامة العدل فيها فخلوا سبيلها ، وأطلقوا عقالها ، يبتدر لها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد ، وشتّتم شملهم بكل واد .

أما والله لئن بقيت فى يدكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحل حقوق الله ، وحقوق العباد .

فقال له : كيف ذلك ؟

فقال : لأن من كلمكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله

مسموع ، ولا ظلمه مرفوع ، ولا من جار عليه مردوع ، و بينك و بين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال ، حيث ملكك هناك خامل ،وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل .

فأكبّ عبد الملك على وجهه يبكى ، ثم قال :

فما حاجتك ؟

فقال : عاملك (بالسماوة) ظلمنى ، وليله لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهو .

فكتب إليه بإعطائه ظلامته ، ثم عزله .

تعزيز المنافق

أراد منافق أن يتملّق كسرى أنو شروان ، فدخل عليه وهو فرح باش ، وقال له : بشراك ياملك الملوك ، فقد مات عدوّك ، فتقطب جبين كسرى ، ونظر إلى المنافق نظرة غضب وقال له : ومَن ذا الذى أنبأك بأننى لست أتبعه إلى الرمس ، قبل أن تغيب الشمس .

اعلم أيها الغِرّ الأحمق (أن لا شماتة فى الموت)وأنه كارثة لا يُسَر لهاالعدو العاقل ، إنما هى آجال ، بعضها قبل بعض ؛ ولكنها آتية لا ريب فيها .

وأنشد يقول :

« سبيل الموت غاية كل حىّ فداعيه لأهل الأرض داعى »

فخجل المنافق وعلم أن سعيه غير ناجح ، وفعله فاضح .

قال عليه السلام : « ليس من أخلاق المؤمن التملق ، ولا الحسد ، إلا في طلب العلم » .

غرنا بالله فكدنا نغتر

وفد على عمر بن عبد العزيز بلال بن أبي بردة فجعل يصلي و يطيل الصلاة .

فقال عمر للعلاء : ترى ذلك تصنعاً ؟

فقال العلاء : أنا آتيك بخبره يا أمير المؤمنين ، فأتى إلى دار بلال بين العشاءين فوجده يصلي .

فقال له : خفف ، فإن لي إليك حاجة .

فخفف وسلم وقال. ما الحاجة ؟

فقال له العلاء : تعرف محلي من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشرت بك عليه في ولاية العراق فما تجعل لي ؟

قال : لك عليّ عمالة سنة ، وكان مبلغ ذلك عشرين ألف درهم ، فسأله العلاء أن يكتب له بذلك شرطاً على نفسه ، فكتب له ، فأتى العلاء بالشرط إلى عمر فلما قرأه قال :

« غرّنا بالله فكدنا نغتر ، وكنا نظنه ذهباً ، فلما سبكناه وجدناه خَبَثاً »

حكايات وأمثال فى الوفاء بالعهد والوعد

المثل الأعلى فى الوفاء

١ ـ أراد النبى صلى الله عليه وسلم العُمرة (أى زيارة البيت الحرام) فسار هو وأصحابه قِبَل مكة حتى وصلوا إلى عسفان (على مرحلتين من مكة) فبلغه هياج قريش لمقدمه ، وأنهم وحدوا الكلمة وجمعوا الصفوف لصده هو وأصحابه فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إليهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه يخبرهم أنه ما جاء المسلمون إلا زائرين ، ولكن قريشاً سجنت سيدنا عثمان وأشيع أنه قتل . فحض النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على البيعة فلما سمعت قريش أمر البيعة وعلمت مدى ثباته عليه الصلاة والسلام على المناجزة سعوا للصلح ، وتم على ترك الحرب عشر سنين ، وأن يأمن بعضهم بعضاً ، وأن تكون العُمرة فى العام القابل ، وأن تخلى لهم مكة ثلاثة أيام ، وأن يدخلوا والسيوف فى قرابها ، وأن يرد إليهم من يفر إليه منهم ولو كان مسلماً ، ولا يردوا إليه من جاء من عنده . وانتهت المعاهدة على هذه الشروط ونفذها النبى صلى الله عليه وسلم موفياً وعده معهم حتى هرب إليه رجل منهم يسمى (أبا بصير) فكتبت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم قائلة له :

ابعث إلينا بصاحبنا فلقد وعدتنا وعاهدناك على رد من قدم عليك من أصحابنا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبا بصير) أن ينطلق مع رسولهم ، فقال له أبو بصير : أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم له : انطلق إلى قومك ، فإنا لا نغدر وإن الله جاعل لك من الضيق فرجاً .

ولما استهل شهر ذى القعدة أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يشدوا رحالهم لقضاء العُمرة ، فلما رأتهم قريش يحملون الأسلحة قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : والله يامحمد ماعرفت بالغدر صغيرا ولا كبيراً ، أتدخل على قومك بالسلاح وقد أمنتهم وأمنوك ؟ فقال لهم المصطفى صلى الله عليه وسلم : إنا لن ندخل بالسلاح ماداموا على الوفاء ، وسنترك سلاحنا فى الخارج ونستعمله إذا حدث مايدعو إليه .

ولما انقضت أيام العمرة الثلاثة أعلمت قريش النبى صلى الله عليه وسلم بانتهاء الموعد المضروب ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : إنا فاعلون فى المساء إن شاء الله ، وأمر من يؤذن بالرحيل .

ولما شاهدت القبائل ماأظهره النبى صلى الله عليه وسلم من الوفاء بالوعد أحبته ، ومالت إليه وعاهدته ، حتى توثقت أواصر المحبة بينه و بين هؤلاء العرب وتلك هى نتيجة الوفاء .

٢ - و يروى أبو داود وابن أبى الدنيا عن عبد الله بن أبى الحمساء رضى الله عنهم : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث فبقيت له بقية ، ووعدته أن آتية بها فى مكان ، فنسيت ، ثم ذكرت ذلك بعد ثلاثة أيام فجئت فإذا هو فى مكانه . فقال يافتى لقد شققت علىّ . أنا هاهنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك

٣ - وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم خادماً فأتى

بثلاثة من السبي، فأعطى اثنين وبقي واحد، فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادماً وتقول: ألا ترى أثر الرحىٰ بيدى؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول كيف بموعدى لأبي الهيثم ؟ فآثروه به على فاطمة ابنته، لما قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرحىٰ بيدها الضعيفة .

٤ ـ وروت عائشة رضى الله عنها : أن صديقة لخديجة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاتها فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

٥ ـ وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب بعض المشركين من ألد أعداء الإسلام . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أنفذ عهدها وأمضى أمانتها وقال : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ .

٦ ـ وهذا (حمزة) عم النبي صلى الله عليه ومصعب بن عمير وأنس ابن النضر وفوا بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقاتلة لإعلاء الدين حتى استشهدوا .

٧ ـ وهذا سيدنا عثمان وطلحة رضى الله عنهما كانا ينتظران الشهادة حباً فى الوفاء ، وحرصاً على ما عاهدوا الله عليه ، حتى نزل فيهم قول الله تبارك وتعالى « مِن المؤمنين رجال صدقوا ما عٰهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من يَنتظر وما بدّلوا تبديلًا » . « الأحزاب ـ ٢٣ »

وفاة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

حضر بين يدى سيدنا عمر رضى الله عنه أسير من الفرس يسمى (الهرمُزَان)

وكان من كبرائهم ، وكان محكوماً عليه بالقتل فقال له : ياأمير المؤمنين ، أريد أن أشرب شربة ماء فلا تقتلني وأنا عطشان ، فأمر سيدنا عمر حتى يشرب وصرح له بقدح من الماء .فلما أخذ الرجل القدح بيده قال له ، ياأمير المؤمنين، أنا آمن حتى أشرب هذا القدح ؟

فقال سيدنا عمر : نعم لك الأمان حتى تشرب .

فرمى الرجل القدح من يده وأراقه على الأرض ، ثم قال :(الوفاء بالوعد) يا أمير المؤمنين (نور أبلج) .

فقال سيدنا عمر : اتركوه الآن ولا تقتلوه ؛ فأسلم الرجل ، وكان سيدنا عمر يعمل برأيه و يشاوره بعد ذلك فى أشياء عظيمة .

وفاء عبد الله بن عمر

لما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال :

إنه خطب إلىّ ابنتى رجل من قريش ، وكان منى إليه شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق ، أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى .

وفاء امرأة لزوجها

خرج سليمان بن عبدالملك ومعه يزيد بن المهلب إلى بعض جبانات الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكى .

فجاء سليمان ينظر إليها فقال لها يزيد ، وقد عجب سليمان من حسنها : يا أمة الله ، هل لك فى أمير المؤمنين !

وقال بعض الشعراء :

« وعدت فأكذبت المواعيد جاهدا وأقلعت إقلاع الجهام بلا وبل »
« وأجررت لى حبلا طويلًا تبعته ولم أدر أن اليأس فى طرف الحبل »

أنجز حرٌّ ما وعد

هذا مثل قاله الحارث بن عمرو الكندى لصخر بن نهشل . وذلك أن الحارث قال : ياصخر هل أدلك على غنيمة على أن لى خمسها ؟

فقال صخر : نعم .

فدلّه على قوم من العرب فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا .

فلما انصرفوا قال له الحارث : أنجز حرٌّ ما وعد .

فأرسلها مثلا .

فراود صخر قومه على أن يعطوا الحارث ما كان ضمن له فأبوا عليه وكان فى طريقهم ثنية متضايقة يقال لها (سجعات) فلما دنوا منها سار إليهم صخر حتى قعد على رأسها ومنعهم الجواز أو يعطوا للحارث الخمس .

فقال جعفر بن ثعلبة اليربوعى : والله لا نعطيه شيئًا من غنيمتنا ، ثم مضى فى الثنية . فحمل عليه صخر وطعنه فقتله ، فلما رأى الجيش ذلك أعطوه الخمس فدفعه إلى الحارث وفاء بوعده .

وقال فى ذلك صخر :

« ونحن منعنا الجيش أن يتأوبوا على سجعات والجياد بنا تجرى »
« حبسناهم حتى أقروا لحكمنا وأدُّوا نصيب الخمس حقا إلى صخر »

وفاء عبد الحميد الكاتب إلى مروان بن محمد

لما أيقن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بانقضاء ملكه ، وانتهاء حكمه لظهور آل العباس عليه ، ومناهضتهم إياه ، قال لعبد الحميد الكاتب وكان إمام الكاتبين : «قد احتجت إلى أن تصير مع عدوى وتظهر الغدرلى ؛ فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابك ، يدعوان إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن نفع حرمى من بعد مماتى » .

فقال عبد الحميد : « إن الذى أمرت به أنفع الأشياء لك ، وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك ، حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك » ثم لزمه ولم يفارقه ، وهكذا يكون الوفاء .

وفاء امرأة بوعدها

لما تولى الخلافة المأمون بن هارون الرشيد خرج عليه عمه إبراهيم بن المهدى فجهز المأمون جيشاً قهر به إبراهيم ، ففر مستخفياً ، وجعل المأمون لمن دله عليه ألف دينار ، فبينما إبراهيم سائر ذات يوم إذ بصر به جندى فعرفه فنادى هـذا والله طلبة أمير المؤمنين ، وتعلق بأثوابه ، فخاف إبراهيم على نفسه ، ودفع الجندى دفعة قوية ألقته عن ظهر جواده ، فشج رأسه ، وتركه ملقى على الأرض ، وقد اهتم الناس بأمره ، وأسرع فى سيره ، حتى دخل زقاقاً ، فوجد فى صدره داراً مفتوحة ، فدخلها مسرعاً ، وإذا هو بامرأة يلوح عليها الوقار والسكينة ، فقالت : ماحاجتك ؟ قال : إنى امرؤ خائف على دمى ، وقد لجأت

فنظرت إليهما ، ثم نظرت إلى القبر وقالت :

« فإن تسألاني عن هواى فإنه بحوماء هـــذا القبر يا فتيان »
« و إنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يرانى »

« نهاية الأرب ثالث »

إذا وعدت فأنجز الوعد

شكا رجل جعفر بن يحيى لأبيه: أنه وعده وعداً ومطله به ، فكتب إليه: يا بُني أنتم معاقل الأحرار ، ومظان المطالب ، ومعادن الشكوى، فكونوا سواء فى الأقوال والأفعال ؛ فإن الحرّ يدخر وعد الحرّ، و يعتقده و ينفقه قبل مَلْكته فإن أخفق أمله ، كان سبباً لذمه واتهامه وسوء ظنه حتى يوارى قُبْح ذلك حسن يقينه ، فأنجز الوعد و إلا فأقصر القول فإنه أعذر ، والسلام .

وقال بعض الشعراء يستحث شخصاً على إجابة طلبه و إنجاز وعده :

« ولى منــك مَوعود طلبتُ نجاحه وأنت امرؤ لا تُخْلِف الدهرَ موعدا »
« وعودتنى ألا تزالَ تظلّـــــنى يدٌ منك قد قدَّمت من قبلها يدا »
« فلو أن مجــداً أو ندى أو فضيلة تخلد شيئاً كنتَ أنت المخـلّدا »

وقيل : الوعد إذا لم يشفعه إنجــاز يحققه كان كلفظ لا معنى له ، وجسم لا روح فيه .

وقيل : خلف الوعد ، خلق الوغد . وقيل : وعد الحرّ دين عليه

وقيل : من خاف الـكذب ، أقل من المواعيد .

إليكم ، واستجرت بكم ، قالت : على الرحب والسعة أدخل فأنت آمن ؛ ثم أدخلته فى مقصورة وأغلقت عليه الباب .

ولم يكد يهدأ روعه حتى سمع ضجة بالباب ، فنظر فإذا الجندى قد دخل الدار ومعه جم غفير من الناس ، وهو لا يقوى على المشى لشدّة ما أصابه ، وقد عصب رأسه بعصابة فاستلقى على فراشه ، وكان إبراهيم بحَيث يراهم ولا يرونه ، فأيقن بالهلاك وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله ، لقد ساقنى حتفى إلى هذه الدار فلا مفرّ من أمر الله .

فلما خرج الناس إلى حال سبيلهم ، جعل يتأوّه و يقول : لقد بصرت بالغنى ثم أفلت منى ، فأخذت المرأة تلاطفه وتخفف مصابه حتى نام ، ثم قامت إلى إبراهيم وقالت : أظنك صاحب القصة ، قال : نعم أنا هو ، قالت لابأس عليك ، فقد أجرتك ، ولا سبيل إلى نقض العهد ، فانج الآن بنفسك ، فخرج من عندها وهو يعجب من عقلها ووفائها ، وعدم طمعها فى المال ، مع ما علمت من وعد أمير المؤمنين .

فلما انكشف أمره للمأمون ، وعفا عنه ، قال له : أخبرنى بما رأيت أيام استخفائك ، فحدثه حديث المرأة ، فأعجب المأمون بوفائها ، وأمر بإحضارها ، وكافأها على إحسانها .

أوفى من السموءل

هو السموءل بن عاديا يضرب به المثل فى الوفاء .

وذلك : أنه لما أراد امرؤ القيس الكندى المضى إلى قيصر الروم أودع

السموءل دروعاً وسلاحاً وأمتعةً كثيرة .

فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة أمانة عند السموءل .

فقال له السموءل : الواجب عليَّ ألاَّ أدفعها إلا لابنته أو ورثته ، وأبى أن يدفع إليه شيئاً منها ، وعاوده فأبى .

وقال : لا أغدر بذمتي ، ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء .

فقصده الملك من كندة بعسكره ، فدخل السموءل في حصنه وتحصن به فحاصره الملك .

وكان ولد السموءل خارج الحصن فظفر به الملك وأخذه أسيراً ؛ ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموءل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن فلما رآه قال له الملك :

إن ولدك قد أسرته وهاهو معي ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت ذبحت ولدك أمامك وأنت تنظر إليه ، فاختر أيهما شئت ؟

فقال له السموءل : والله لا وفيت في حياته ، وأغدر به بعد وفاته أبداً ، فشأنك بابني فافعل به ماشئت ، فذبحه وهو ينظر إليه ، ولم يرض بالغدر وصبر على وفائه وعهده ، ورأى أن حفظ ذمامه ، ورعاية وفائه وأمانته أحب إليه من حياة ولده و بقائه .

فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلّم إليهم الدروع والسلاح والأمتعة وأنشد يقول :

« وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ما القوم قد غدروا وفيت »
« وقالوا إنه كنز رغيب فلا وأبيك أغدر ماحييت »
« وأوصى عاديا يوماً بألا تهدم ياسموءل مابنيت »
« بنى لى عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت أستقيت »

ولذلك ضرب به المثل فى الأمانة والوفاء ، واستحق من الناس حسن الذكر وجميل الثناء .

الوفاء للموتى

سأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحرب، مع الخوارج فقال : كان رحمه الله يفعل كذا وكذا .

فقال المنصور : عليك لعنة الله تطأ بساطى ، وتترحم على عدوى ، فقال : إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى .

فقال له المنصور : ارجع ياشيخ فإنى أشهد أنك لوفىّ حافظ للجميل ، ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال :

والله لولا أمير المؤمنين وإمضاء أمره ، وإنفاذ طاعته ، مالبست لأحد بعد هشام نعمة .

فقال له المنصور : لله درّك ، فلو لم يكن فى قومك غيرك ، لكنت أبقيت لهم مجداً مخلداً ، لجميل وفائك لمن أحسن إليك ؛ ثم أوصى المنصور برعاية أموره

وقضاء حوائجه ، وصار يذكره فى خلواته ، ويستحسن ما صدر منه .

أطلق سراحه وفاء بوعده

كان الحارث بن عباد فى حرب ، وأراد أن يظفر بعَدِىٍّ بن ربيعة ليثأره منه ؛ لأنه كان عدوًّا له .

وإذ كان فى معمعة الحرب أسر رجلاً ، فطلب منه أن يدله على عَدِىٍّ ابن ربيعة ، فقال له ذلك الأسير : أتطلقنى من أسرك إن دللتك عليه ؟

قال : نعم .

فقال له : أنا عدى بن ربيعة .

فأطلقه وفاء بوعده .

نادرة فى الوفاء

النعمان بن المنذر ، والطائى ، وشريك بن عدىّ

إن النعمان بن المنذر كان قد جعل له يومين : يوم بؤس ، من صادفه فيه قتله وأرداه ؛ ويوم نعيم ، من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه .

وكان الطائى قد رماه حادث دهره ، بسهام فاقته وفقره ، وأبلاه القدر من قرب عسره ، وبعد يسره ، بما أنساه جميل صبره ، وأغراه بشكوى ضره .

فخرج يرتاد نجعة لصغاره ، فبينما هو فى اضطراب إذ أوقعه القدر فى شرك النعمان فى يوم إهلاك من رآه .

فلما بصر به الطائى علم أنه مقتول . فقال : حيّا الله الملك إن لى صبيةً صغاراً

وأهلاً جياعاً ، وقد أرقت ماء وجهى فى طلب هذه البُلغة الحقيرة لهم ، واعلم أن سوء الحظ أقدمنى على الملك فى هذا اليوم العبوس ، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعاً ، وعلىّ عهد الله أنى إذا أوصيت بهم أرجع إلى الملك مساء وأسلم نفسى بين يديه لنفاذ أمره .

فلما سمع النعمان صورة مقاله ، وفهم حقيقة حاله ، ورأى تلهفه من ضياع أطفاله ، رقّ له وقال : لا آذن لك إلا أن يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه ، وشريك بن عَدِى نديم النعمان معه ، فالتفت الطائى إلى شريك وقال له :

يا شريك بن عَـــدِى ما من الموت انهزامى
بل لأطفال ضعـــاف عدموا طعم الطعـــام
بين جوع وانتظـــار وافتقار وسقــــــام
يا أخا كل كــريم أنت من قــــوم كرام
يا أخا النعمان جُـــد لى بضــــــمان والتزام
ولك الله بأنى راجع قبــــل الظلام

فقال شريك بن عَدى : أصلح الله الملك ، علىّ ضمانه .

فمرّ الطائى مسرعاً والنعمان يقول لشريك : إنّ صَدْرَ النهار قد ولى ولم يرجع ، وشريك يقول : ليس للملك علىّ سبيل حتى يأتى المساء .

فلما قرب المساء قال النعمان لشريك : جاء وقتك فتاهب للقتل .

فقال شريك : هذا شخص قد لاحَ مقبلا وأرجو أن يكون الطائى فإن لم

يكن فأمر الملك ممتثل .

فبينما هم كذلك ، و إذا بالطائى قد أقبل يشق فى عدوه مسرعاً فقدم وقال : خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى فعدوت ، ثم وقف قائماً وقال : أيها الملك مُر بأمرك .

فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه وقال : والله ما رأيت أعجب منكما .

أما أنت يا طائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاماً يقوم فيه ، ولا ذكراً يفخر به .

وأما أنت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء ، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ، ألا و إنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ، ونقضت يوم عادتى ، كرامةً لوفاء الطائى ، وكرم شريك . فقال الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى فعددت قولهم من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء خليقةٌ وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان : ماحملك على الوفاء وفيه تلف نفسك ؟ قال : دينى «فمن لا دين له لاوفاءله» فأحسن إليه النعمان ووصله وأعاده إلى أهله . «العقدالفريد»

مات شهيد وفائه

يحكى أن رجلاً رومانياً يسمى (رجليوس) أسر فى مدينة (قرطاجنة) والحرب قائمة بين القرطاجيين والرومانيين ، فعاهده آسروه على أن ينطلق لقومه و يحسم النزاع بينهما ، فتضع الحرب أوزارها ، و إلا رجع إلى أسره .

فلما أن خاب مسعاه فى الصلح عند قومه كرّ راجعاً إلى قرطاجنة ورضى بالعـذاب المبين ، والقتل المهين ، خيفة أن يسجل على أهله وقومه العـار فى العالمين ففضل الموت على الحياة خوفاً من عار الغدر ،وعدم الوفاء بالعهد .

الوفاء يحسن السُّمعة
ويؤمن الصَّرعة

كان الخليفة المأمون قد ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه :

فدخل على المأمون يوماً بعض إخوته فقال ، ياأمير المؤمنين . إن عبدالله ابن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين ، وكذا كان أبوه قبله ؛ فحصل عند المأمون من كلام أخيه شىء من جهـة عبد الله بن طاهر فتشوش فـكره ، وضاق صدره فاستحضر شخصاً ووضعـه فى زىّ النسَّاك الزهاد ودسَّه إلى عبـد الله بن طاهر وقال : تمضى إلى مصر ، وتخالط جمـاعة من الـكبراء فى السرّ ، وتستميلهم إلى القاسم بن محمد بن طباطبا العلوى ، وتذكر مناقبه ؛ ثم بعد ذلك تجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اجتمع بعبدالله بعد ذلك وادْعُه إلى القاسم بن محمد العلوى واكشف باطنه ، وابحث عن دفين نيته ، وائتنى بما تسمع .

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون ، وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها ، ثم كتب ورقة لطيفة إلى عبد الله بن طاهر ودفعها إليه وقت ركوبه . فلما انصرف الناس خرج الحاجب إليه ، فأدخله عليه ، وهو قاعدوحده.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال له : قد فهمت ما قصدته ، فهات ما عندك .

قال : ولى الأمان ، وثقة الله تعالى ؟

قال : نعم ، لكَ ذلك .

فأظهر ما أراد ، ودعا إلى القاسم بن محمد .

فقال له عبد الله : أتنصفنى ؟ قال : نعم .

قال : فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض الإحسان والمنة ؟

قال : نعم ، قال : فتجيئ إلىّ وأنا فى هذه الحالة التى تراها ، لى خاتم فى الشرق ، وخاتم فى الغرب وما بينهما ، أمرى مطاع ، وقولى مقبول ؛ ثم إنى ألتفت عن يمينى وعن شمالى فأجد نعمة هذا الرجل غامرة لى، قد ختم بهارقبتى فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وتقول لى : اغدر وجانب الوفاء ، والله لو دعوتنى إلى الجنة عياناً لما غدرت ، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء .

فسكت الرجل ، فقال له عبد الله : والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد .

فلما أيس الرجل وكشف باطنه وسمع كلامه ، جاء إلى المأمون ، فأخبره صورة الحال فسره ذلك ، وأردف إحسانه إليه ، وضاعف إنعامه عليه .

وفى هذه القصة بيان شاف ، و برهان كاف ، فى أن الوفاء يحسن السّمعة و يؤمن الصَرعة .

« العقد الفريد »

وفاء كافور الأخشيدى بعهده

قال أبو الفتح المنطيقى : كنا جلوسًا عند كافور الأخشيدى ، وهو يومئذ

صاحب مصر والشام ، وله من البسطة والمكانة ، ونفاذ الأمر ، وعلوّ القدر ، وشهرة الذكر ، ما يتجاوز حد الوصف والحصر ، فحضرت المائدة والطعام ؛ فلما أكلنا نام ، وانصرفنا ، فلما انتبه من نومه طلب جماعةً منا وقال : امضوا إلى (عقبة النجارين) واسألوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك ، فإن كان حيًّا فأحضروه ، وإن كان توفى اسألوا عن أولاده ، واكشفوا أمره ، قال : فمضينا إلى هناك وسألنا عنه ، وكشفنا فوجدناه قد مات وترك بنتين إحداهما متزوجة والأخرى عاتق « شابة » ، فعدنا إلى كافور وأخبرناه بذلك .

فسيَّر فى الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً ، وأعطى لكل واحدة منهما ثيابًا وكسوةً وذهبًا كثيراً ، وزوّج العاتق ، وأجرى على كل واحدة منهما رزقًا ، وأشهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما .

فلما فعل ذلك ، وبالغ فيه ضحك ، وقال : أتعلمون سبب هذا ؟

قلنا : لا نعلم ، فقال : اعلموا أنى مررت يومًا بوالدهما المنجم وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب بحالة رثة فوقفت عليه ، فنظر إلىّ واستجلسنى وقال : أنت تصير إلى رجل جليل ، وتبلغ معه مبلغًا كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً ، وطلب منى شيئًا فأعطيته درهمين كانا معى ، ولم يكن معى غيرهما فرمى بهما وقال :

أبشرك هذه البشارة وتعطينى درهمين ؟

ثم قال : وأزيدك ، أنت والله تملك هذا البلد ، وأكثر منه ، فاذكرنى إذا ماصرت إلى ما وعدتك به ، ولا تنسنى ، فبذلت له ذلك وقلت : نعم .

فقال : عاهدنى أنك تفى لى ، ولا يشغلك الملك عن افتقادى .

فعاهدته ، ولم يأخذ الدرهمين .

ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال ، وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك ؛ فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل علىّ وقال : أين الوفاء بعهدك ، وإتمام وعدك ، لا تغدر فيغدر بك ؟ فاستيقظت وفعلت ما رأيتم .

فانتشرت هذه القصة فى مصر ، واشتهر إحسانه إلى بنات المنجم لوفائه لوالدهما ، فتضاعف الدعاء له ، والثناء عليه . « العقد الفريد »

مثال فى إنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد

يحكى أنه بينما الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جالساً فى بعض الأيام وعنده أكابر الصحابة ، وأهل الرأى والإصابة ، وهو يحكم بين الرعايا فى القضايا ، إذ أقبل شابان من أحسن الشباب ، مكتنفان شاباً نظيف الثياب ، جميل الخِلقة ، ودلائل الشجاعة ، تتلألأ فى جبينه مشرقة ، وقد جذباه وسحباه وأوقفاه ، بين يدى أمير المؤمنين ولبباه ، فنظر الخليفة إليهما وإليه ، عندما وقفوا بين يديه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، نحن أخوان شقيقان ، جديران باتباع الحق حقيقان ، كان لنا أب شيخ كبير ، حسن التدبير ، معظّم فى قبائله ، منزّه عن رذائله ، معروف بفضائله ، ربّانا صغاراً ، وأولانا مِنناً غزاراً ، صدق فيه قول الشاعر :

« لنا والد لو كان للناس مثله ... أب آخر أغناهم بالمناقب »

فخرج اليوم إلى حديقة له يتنزه فى أشجارها ، ويقتطف يانع أثمارها فقتله

هذا الشاب ، وعدل عن طريق الصواب ، فنسألك القصاص عما جناه ، والحكم فيه بما أمرك الله .

فنظر عمر إلى الشاب وقال : قد سمعت ، فما الجواب ؟ والغلام مع ذلك ثابت الجنان والجأش ، خال عن الاستيحاش ، قد خلع ثياب الهلع ، ونزع لباس الجزع ، فتبسم عن مثل الجمان ، وتكلم بأفصح لسان ، وحيّا بكلمات حسان ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد وعيا فيما ادعيا ، ونطقا فصدقا ، وأخبرا بما جرى ، وعبّرا بما ترى ، وسأنهى قصتى بين يديك ، والأمر فيها إليك .

اعلم أنى أعرابى من العرب العرباء ، نبت فى منازل البادية ، وصبحت على أسود السنين العادية ، فأقبلت إلى ظاهر هذا البلد ، بالأهل والمال والولد ، فأفضت بى بعض طرائقها ، إلى المسير بين حدائقها ، بنياق إلىّ حبيبات ، علىّ عزيزات ، بينهن فحل كريم الأصل ، كثير النسل ، مليح الشكل ، حسن النتاج ، يمشى بينهن كأنه ملك عليه تاج ؛ فدنت النوق إلى حديقة قد ظهر من الحائط شجرها ، فتناولتها بمشفرها ، فطردتها عن تلك الحديقة ، وإذا بشيخ قد ظهر ، وتسوّر الحائط وزفر ، وفى يده اليمنى حجر ، يتهادى كالليث إذا خطر ، فضرب الفحل بذاك الحجر ، فأصاب مقتله فأباده ، فلما رأيت الفحل سقط لجنبه وانقلب ، توقدت فىّ جمرات الغضب ، فتناولت ذلك الحجر بعينه فضربته به ، فكان سبب حينه ، ولقى سوء منقلبه ، والمرء مقتول بما قتل به ، بعد أن صاح صيحة عظيمة ، وصرخ صرخة أليمة ، فأسرعت هاربا من مكانى ، فلم أكن

بأسرع من هذين الشابين فأمسكانى ، وأحضرانى كما ترانى .

قال عمر : قد اعترفت ، بما اقترفت ، وتعذر الخلاص ، ووجب القصاص، ولات حين مناص .

فقال الشاب : سمعاً وطاعةً لما حكم الإمام ، ورضيت بما اقتضته شريعة الإسلام ؛ ولكن لى أخ صغير ، كان له أب خبير ، خصَّه قبل وفاته بمال جزيل وذهب جليل ، وأحضره بين يدىّ ، وأسلم أمره إلىّ ، وأشهد الله علىّ ، وقال: هذا لأخيك عندك ، فاحفظه جهدك ، فاتخذت لذلك مدفناً ، ووضعته فيه ولا يعلم به أحد إلا أنا ، فإن حكمت بقتلى ذهب الذهب ، وكنت أنت السبب، وطالبك الصغير بحقه ، يوم يقضى الله بين خلقه ، وإن أنظرتنى ثلاثة أيام ، أقمت من يتولى أمر الغلام ، وعدت وافياً بالذمام ، ولى من يضمننى على هذا الكلام .

فأطرق عُمر ساعةً ، ثم نظر إلى من حضر ، وقال : مَن يقوم على ضمانه، والعود إلى مكانه ؟

فنظر الغلام إلى وجوه أهل المجلس الناظرين ، وأشار إلى (أبى ذر) دون الحاضرين ، وقال :

هذا يكفلنى ، وهو الذى يضمننى .

فقال عُمر : أتضمنه يا أبا ذر على هذا الكلام ؟ قال : نعم ، أضمنه إلى ثلاثة أيام ، فرضى الشابان بضمان أبى ذر ، وأنظراه ذلك القدر .

فلما انقضت مدة الإمهال ، وكاد وقتها يزول أو زال ، حضر الشابان إلى

مجلس عُمر ، والصحابة حوله كالنجوم حول القمر ، وأبو ذر قد حضر ، والخصم ينتظر .

فقال الشابان : أين الغريم يا أبا ذر ، وكيف يرجع من فرّ ؟ فلا نبرح من مكاننا ، حتى تفي بضماننا .

فقال أبو ذر : وحق الملك العلام ، إن انقضى تمام الأيام ، ولم يحضر الغلام لوفيت بالضمان ، وسلمت نفسي والله المستعان .

فقال عُمر : والله إن تأخر الغلام ، لأمضين في أبي ذر مااقتضته شريعة الإسلام ، فهملت عبرات الحاضرين ، وأوفضت زفرات الناظرين ، وعظم الضجيج ، وتزايد النشيج ، فعرض كبار الصحابة على الشابين أخذ الدية ، واغتنام الأثنية . فأصرّا على عدم القبول ، وأبيا إلا الأخذ بثأر المقتول .

فبينما الناس يموجون تلهفاً لما مرّ ، يصيحون أسفاً على أبي ذر ، إذ أقبل الغلام ، ووقف بين يدي الإمام ، وسلم عليه أتم السلام ، ووجهه يتهلل مشرقاً ويتكلل عرقاً ، وقال : قد أسلمت الصبي إلى أخوالي ، وعرفتهم مافي أحوالي ، وأطلعتهم على مكان ماله ومالي ، ثم اقتحمت هاجرات الحر ، ووفيت وفاء الحرّ الأغرّ .

فعجب الناس (من صدقه ووفائه) وإقدامه على الموت واجترائه .

فقال : من غدر ، لم يعف عنه من قدر ، ومن وفا ، رحمه الطالب وعفا ، وتحققت أن الموت إذا حضر ، لم يُنج منه احتراس ، وبادرت كي لا يقال : ذهب الوفاء من الناس .

فقال أبو ذر : والله ياأمير المؤمنين ، لقد ضمنت هـذا الغلام ، ولم أعرفه من أى قوم ، ولا رأيته قبل ذلك اليوم ؛ ولـكنه نظر إلى من خضر ، فقصدنى وقال : هذا يضمننى ، فلم أستحسن ردَّه ، وأبت المروءة أن تخيب قصده ؛ إذ ليس فى إجابة القصد من باس ، كى لا يقال ذهب الفضل من الناس .

فقال الشابان عند ذلك : يا أمير المؤمنين ، قد وهبنا لهذا الغلام دم أبينا ، فلتبدل وحشته بإيناس ، كى لا يقال : ذهب المعروف من الناس .

فاستبشر الإمام ، بالعفو عن الغلام ، وعجب من صدقه ووفائه ، واستعزز روءة أبى ذر دون جلسائه ، واستحسن اعتماد الشابين فى اصطناع المعروف ، وأثنى عليهما أحسن ثناء وتمثل بهذا البيت :

« من يصنع الخير لم يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس »

ثم عرض عليهما أمير المؤمنين أن يصرف لهما من بيت المال دية أبيهما ، فقالا : ياأمير المؤمنين إنما عفونا عنه ابتغاء لوجه الله ، ومن نيته كذا ، لايتبع إحسانه منًّا ولا أذى .

« أنفس الأعلاق »

الموت ولا ترك الوفاء

وقعت فى بلاد الانجليز فى مدة حكم الملك (شارل الأول) ثورة وقامت الحرب بينه و بين مجلس الشورى ، واشتبك القتال بين الجيوش المنتصرة له ، والجيوش المنتصرة لمجلس الشورى ، وكان الغالب منهما يفتك بالمغلوب فتكا ذريعاً ، حتى قهرت جيوش الملك ، وفرّ من كان أمينا من قواده إلى مدينة (كلشنر) حيث

تحصنوا تحت قيادة اللورد « كابل » فأحدقت جيوش المجلس بالمدينة تحت قيادة اللورد « فيرفكس » وأقامت عليها حصاراً له فى التاريخ نبأ عظيم .

وحافظ المحاصرون على الوفاء لمولاهم الملك ، واستقتلوا فى سبيله ، فلم يبالوا بالمخاطر ، ولم يخضعوا للجوع ، بل كانوا يحملون المرة بعد المرة على الجيوش المحاصرة ، ويرجعون بالزاد والمؤن ، فاحترق فؤاد « فيرفكس » قائد الجيوش المحاضرة من جراء ذلك ، وطلب حيلة يفتح بها المدينة و يستميل « كابل » قائد الجيوش المحصورة إلى الخروج عن طاعة الملك والانضمام إلى جيش المجلس .

وكان « كابل » أشهر أهل ذلك الزمان ، وأعلاهم كعباً وفضلاً ، وقد آلى على نفسه أن يموت محافظاً على ولاء سيده الملك والوفاء له ، وكان له ابن وحيد عمره ستة عشر سنة يتعلم فى مدرسه بضواحى مدينة « لندن » فبعث « فيرفكس » قائد جيوش المجلس واختطفه سراً ، وأتى به إليه ، وبعث إلى والده يطلب مواجهته .

فأجابه إلى ذلك وهو لا يدرى بداخلية الأمر ، وعملا هدنة يوماً واحداً اجتمعا فيه للمداولة فى خيمة على بعد فى منتصف المسافة بين الجيشين ، فجعل (فيرفكس) يعد (كابل) عن لسان المجلس بالعطايا والنعم الوافرة والرتب والنياشين إذا تخلى عن الملك وانضم إليهم .

فاستاء (كابل) من كلامه ولم يرض الغدر بمولاه .

وقال له : دع عنك المحال ، فإنى قد وطنت نفسى على الموت دون أن أخون مولاى الملك ، وأحنث فى اليمين التى أقسمتها على الوفاء له .

ثم قام فى الحال وهمّ بالخروج من الخيمة فهاج غَضب (فيرفكس) وقال له : قِف مكانك فإنك إن لم تقنع بكلامى فاسمع كلام من يقنعك ، لأن حياته ومماته متوقفان على جوابك ، وفى الحال أدخل الجند ابن (كابل) وقد كشف بعضهم صدره وسدد خنجره نحوه .

فقال له (فيرفكس) : قل لأبيك يسلمنى هذه المدينة فى الحال و إلا قبضت روحك أمام عينيه ؟

لما التقى الأب بابنه وكانا قد افترقا منذ سنتين هما بالمصافحة والمعانقة فمنعهما الجند فصاح (كابل بفيرفكس) وقال له : ماذا جنى عليك ابنى هذا أيها القاسى وبأى حق تريد قتله ؟

فصاح الولد قائلا : لاتخف ياأبى فإن هذا الرجل لن يبلغ مناه منا ، وإنى لن أنطق بكلمة تغاير الشرف والعواطف التى غرستها فىّ من الصغر

فقال الأب لولده : أنت تعلم يا بنى مقدار حبى لك ، فإذا خنت من أجلك مولاى الملك وحنثت فى يمينى لم أجاب علىّ وعليك إلا الذل والعار والهوان ، فحياتك الآن بيد هذا الرجل ، و إنى لأعد موتك وأنت فى زهرة شبابك فداءً عن ملك فخراً وشرفاً لك ، ومنّةً من الله عليك فأستودعك الله الوداع الأخير ثم نظر إلى ابنه نظرة الحزن والأسى ، وخرج من الخيمة ، وغلب الحزن على كل من كان حاضراً فبكوا جميعاً بدمع غزير ، وقال قائد منهم : حاشا لمثلك يافيرفكس) أن تمدَّ لهذا الغلام يد السوء ، فإنك لو فعلت تجنى جناية تلعنك عليها (انكلترا) بأسرها ، ويضرب الناس بك المثل فى القساوة والظلم المريع .

فلما سمع (فيرفكس) هذا الكلام خاف عقاب الله ، ومذمة الناس فرجع عن عزمه ، وعفا عن الشاب ، وأبقاه أسيراً عنده ، ثم رده إلى والدته .

وأما (كابل) فثبت فى المدينة هو ورجاله يدافع عنها دفاع الأبطال حتى أشرفوا على الموت جوعاً ، ولم تبق فيهم قوة للدفاع ، فاستظهر عليهم (فيرفكس) وفتح المدينة ، وحكم المجلس على (كابل) وكبار الحامية بالقتل فقتلوا ، وذلك فى أواسط القرن السابع عشر .

حافظ على عهده ، ولم يأخذ بثأر ولده

لما كان العرب المغاربة ناشرين لواء دولتهم على بلاد الأندلس اتفق أن فارساً من الأسبان تخاصم مع شاب من العرب دفعته الحدة إلى قتله ، ثم خاف سوء العاقبة ففرّ هارباً وهو لا يعى من الدهشة والجزع ، فأدّاه الركض إلى باب حديقة فدخلها فوجد فيها شيخاً من العرب جليلا فوقع على قدمه وأخبره بما كان من أمره ، وما استولى عليه من الخوف ، وتعلق بأهداب ردائه ، لائذا بحماه ، مستجيراً به من ثأر أعدائه ، فسكّن الشيخ روعه ، وجاء به إلى بيت منفرد فى الحديقة فأدخله إليه ، ووعد أن يجيره من كل مكروه ، فما مضى غير القليل حتى سُمعت جلبة عظيمة ، ودخل قوم حاملين جثة شاب قتيل .

فنظر الشيخ فرأى جثة ولده مضرّجة بدمائه ، فأخبروه أن القاتل له فارس أسبانى قد فرّ هارباً ولم يقفوا على أثره ؛ ولكنهم لا يقعدون عن مطاردته ، والانتقام منه .

فعرف الأب الحقيقة ، وثبت له أن القاتل هو ذلك الرجل الذى دخل بيته

ولاذ بحماه ، فتفطر فؤاده جزعاً على ولده ؛ ولـكنه تجـلد وسكّن جأش قومه وانفرد فى مقصورته ليشفى غليله من البكاء على ولده ، وفلذة كبده ، ولم يخرج منها إلا عند ما انتصف الليل وساد السكون ، فدخل البيت الذى خبأ فيـه الأسبانى، وكان هذا القاتل فىقلق شديد يخيفه أدنى شىء ، وقد عظم اضطرابه لمّا سمع بالجلبة ولم يعرف لها سبباً .

فلما علم الفارس أن القتيل ابن صاحب البيت ، طارت نفسه خوفًا ، ورأى الموت عياناً .

لكن الشيـخ الجليل ، والرجل الأصيـل ، هدأ روعه ، وآمنـه على حياته قائلًا :

ياهذا، دخلت فى حماى، واستجرت بى فأجرتك، وأنالا أعرفك وما كنت الآن لأنـكث عهدى ، وأخفر ذمتى ؛ ثم أشار عليه أن يغتنم الفرصة ويفرّ تحت جنح الظلام قائلًا له :

لستُ آمن عليك من شر قومى إذا علموا بوجودك عندى ، ولا أريدأن يصيبك سوء أو مكروه وأنت فى دارى ، وفى جوارى ، فالله وحده ولىّأمرى الآخذ بالثأر ، المنتقم الجبار .

قال هذا وأطلق سبيله ، بعد أن أعطاه زاداً ونفقةً .

وهكذا تـكون المحافظة على العهد ، والوفاء بالوعد .

حكايات وأمثال فى خلف الوعد

مواعيـــد عرقوب

هذا مثل يضرب فى خلف الوعد ، فيقال : فلان مواعيده مواعيد عرقوب ، وحكايته : أن رجلًا من العماليق يقال له أبو عبيد ، له أخ يقال له عرقوب أتاه يسأله .

فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلَك طلعها (حملها)

فلما أطلعت جاءه أبو عبيد للعدة .

فقال له عرقوب : حتى تصير بلحاً .

فلما أبلحت قال له : دَعها حتى تصير زهواً .

فلما زهت قال له : دَعها حتى تصير رُطبًا .

فلما أرطبت قال له : دَعها حتى تصير تمراً .

فلما أثمرت عمد إليها عرقوب فى الليل فجذّها وقطعها ، ولم يعط أخاه شيئاً فصار يضرب به المثل فى خلف الوعد .

وفيه يقول الأشجعى :

« وعدتَ وكان الخلف منك سجيةً مواعيـــد عرقوب أخاه بيترب »

وقال أيضا كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لهـــا مثلًا وما مواعيدها إلّا الأباطيـــل »

جزاء خلف الوعد

انكسر محراث أحد الفلاحين وأهمل إصلاحه حتى جاء أوان الحرث فذهب إلى جاره وقال له :

أعطني محراثك لأحرث به يوماً ثم أرده إليك .

فقال له : كنت أود إجابة طلبك، ولكن ماحصل منك فى السنة الماضية يمنعنى من مساعدتك الآن ، قد أقرضته لك لمدة يوم ، ولم تردّه إلا بعد ثمانية أيام ، وكنتَ تعرف أنى فى حاجة شديدة إليه .

وإنى أعتقد أن مَن يخلف وعده مرةً ، يجوز أن يخلفه مرةً أخرى، فاذهب وأصلح محراثك ، أو تدبر فى أمرك .

فذهب إلى بعض أصحابه فوجدهم فى حاجة إلى محاريثهم، ولم يجد وقتاً لإصلاح محراثه ، فتأخرت زراعته بسبب ذلك، وندم على خلف وعده السابق، لأنه كان سبباً فى تأخير زراعته هذه السنة .

عاقبة نكث العهد

يحكى أن رجلاً بستانيًّا رأى رجلاً مقعداً وآخر أعمى، فأدخلهما إلى البستان، وأمرهما ألا يفسدا فيه ، ولا يصنعا أمراً يضرُّ به ، فعاهداه على ذلك .

فلما طابت ثمار البستان قال المقعد للناظر على البستان :

إنا قد اشتهينا شيئا من هذه الثمار ونحن كما ترى .

أنا مقعد ، وصاحبي أعمى لا يبصر شيئا ، فما حيلتنا ؟

فقال له الناظر : ويحك أنسيت ماعاهدت عليه صاحب البستان من أنك لاتتعرض لشيء ، فانته ولا تفعل .

فلم ينته عن رأيه ، وعمد إلى حيلة وهي : أن الأعمى حمل المقعد ، وهذا أرشده حتى أدناه إلى ماأحب من الثمار ، وأكلا مايشتهيان .

فعلم صاحب البستان بما فعلا ، وعاقبهما وأخرجهما من البستان .

سوء عاقبة الغدر ونقض العهد

قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى

يحكى أن ثعلبة كان من أنصار النبي ﷺ فجاء يوماً فقال : يارسول الله ادع لى أن يرزقنى الله مالاً . فقال له رسول الله ﷺ : ويحك ياثعلبة ! قليل تؤدى شكره ، خير من كثير لا تُطيقه .

ثم أتاه بعد ذلك مرةً أخرى فقال : يارسول الله ادع الله لى أن يرزقنى مالا .

فقال رسول الله ﷺ : أما لك فى رسول الله أسوة حسنة ، والذى نفسى بيده ، لو أردتُ أن تسير الجبال معى ذهبا وفضةً لسارت .

ثم أتاه بعد ذلك فقال : يارسول الله ادع الله لى أن يرزقنى مالاً ، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه ، وعاهد الله على ذلك

فقال رسول الله ﷺ : اللّهم ارزق ثعلبة مالاً .

قال : فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، وهى تنمى كما ينمى الدود ، وكان يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ، ولا يصلى باقى الصلوات إلا فى غنمه ،

فكثرت ونمت حتى بعدت عن المدينة ، فصار لايشهد إلا الجمعة ؛ ثم كثرت أيضاً حتى كان لايشهد جمعة ولا جماعة،فكان إذا كان يوم الجمعة ، خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار .

فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : مافعل ثعلبة ؟

فقالوا : يارسول الله اتخذ غنما لا يسعها واد .

فقال رسول الله ﷺ ياويح ثعلبة !

فأنزل الله آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين:رجلامن بنى سليم ورجلا من بنى جهينة ، وكتب لهما أسباب الصدقة كيف يأخذانها وقال لهما: مرّا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بنى سليم ، فخذا صدقاتهما،فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ .

فقال : ماهذه إلّا جزية ، ماهذه إلّا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلىّ،فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها .

فلما رأياها قالا : ماهذا ؟ قال : خذاه فإن نفسى به طيبة .

فمرّا على الناس وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال:أرونى كتابكما فقرأه . ثم قال : ماهذه إلّا جزية ، ماهذه إلّا أخت الجزية ، اذهبا حتى أرى رأيى ، قال : فأقبلا ، فلما رآهما رسول الله ﷺ ، قبل أن يتكلما قال: ياويح ثعلبة ! فأنزل الله عز وجل قوله : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ

وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة ! قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقتك .

فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ، فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني .

فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، وقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً .

ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه حين استُخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل مني صدقتي .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا ، فقبض أبو بكر رضى الله عنه ولم يقبلها .

ثم لما وُلي عُمر رضى الله عنه أتاه فقال : ياأمير المؤمنين اقبل صدقتي .

فقال : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها ، وقُبض عُمر ولم يقبلها .

ثم وُلى عثمان رضى الله عنه فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عُمر فأنا لا أقبلها .

ثم هلك ثعلبة فى خلافة سيدنا عثمان .

وهذا تلخيص قصته بنصها وفصها .

فانظروا رحمكم الله إلى سوء عاقبة غدره ، كيف أذاقه الله وبال أمره ، ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره ، وأعقبه نفاقا يخزيه ، يوم فاقته وفقره . فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق؟ وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق؟ وأى عار أقبح من نقض العهد إذا عُدت مكارم الأخلاق ؟

« العقد الفريد »

حكايات وأمثال فى فضل الحلم

المثل الأعلىٰ فى الحلم

١ ــ جاء يهودى إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه ديناً فجذب الرسولَ ﷺ من ثوبه ، وأغلظ فى القول معه حيث قال : يابنى عبد المطلب أنتم قوم مطل ، فاغتاظ عمر بن الخطاب رضى الله عنه من هـذا الفعل السيىء ، وهمّ بالانتقام من اليهودى ، ومقابلة الغلظة بالغلظة ، ولـكن الرسول عليـهُ السـلام لم تثر نفسه ، ولم يهـج هائجه ، ولم يُرَ للغضب أثرٌ فى وجهه ، بل كظم غيظه ، وكبح جماح نفسه وقال لعمر ، وهو يبتسم فى وداعة الحليم ،وتؤدة الحـكيم ورزانة العاقل :

هناك ماهو خير من ذلك ياعمر . ادعنى إلى حسن الأداء ، ومُره بحسن المطالبة . فأطرق اليهودى ، ثم رفع رأسه وقال لرسول الله : لقد عرفتك نبيًّا بتطبيق البشائر عليك ، ولـكن لم أر تطبيق الحلم عمليًّا ، وها أنا قد رأيتـه وأنا « أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

ثم قضى المصطفى ﷺ الدائن دينه ، وطيب خاطره على ماروّعه عُمر .

٢ ــ روى أن معـاذاً شج رأس رجل فطالب قومه بالقصاص ، فرضاهم رسول الله بمال حتى يعفوا . فرضوا به ، فقال لهم عليـه الصلاة والسلام : إنى سأعلن ذلك فى ملأ من الناس ، فقالوا : نعم . فذكره ﷺ فى اجتماع ثم قال لهم : هل رضيتم ؟ فقالوا : لا . فلم يغضب عليهم ، واختلى بهم مرة أخرى وزاد لهم فى المال حتى رضوا . فقال لهم : إنى سأذكر ذلك فى جمع ، فقالوا : نعم

ففعل ، ثم قال لهم : هل رضيتم ؟ قالوا : رضينا .

٣ ــ قال رجل لأبي بكر الصديق رضى الله عنه : لأسبنك سباً يدخل معك القبر ، فأجابه : معك يدخل لا معى .

٤ ــ وكان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه رجل بشتم أو قول سيئ لم يجبه زفقاً بنفسه عنه ، فجرى بينه و بين على بن عبد الله كلام ، فأسرع إليه فقال له على : خفض عليك أيها الرجل ، فإنى أتركك اليوم لما كنت تترك له الناس

٥ ــ روى أن رجلا من جفاة الأعراب قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: والله ماتقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجل: ياأمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

فبكى عمر رضى الله عنه ، وحلم عليه ، وعفا عنه .

٦ ــ قال أبو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما يؤلم : لا تغرقن فى سبنا ، ودع للصلح موضعاً ، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه .

٧ ــ وشتم رجل الشعبى فقال له : إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لى، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك .

٨ ــ واغتاظت عائشة رضى الله عنها من خادم لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : لله در التقوى ماتركت لذى غيظ شفاء .

٩ ــ وقال رجل لضرار بن القعقاع : والله لو قلت واحدة لسمعت عشراً

فقال له ضرار : والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة .

١٠ ـ وقع بين أبى مسلم و بين أصحابه كلام فأر بى ذلك الصاحب، وأغلظ فأطرق أبو مسلم ولم يرد عليه. فلما سكن غضب الرجل ندم، وعلم أنه أخطأ ، وقال: أيها الأمير ، والله ما انبسطت حتى بسطتنى ، ولا قطعت حتى قطعتنى فاغفر لى قال : قد فعلت . قال : أحب أن أستوثق ، فقال أبو مسلم : سبحان الله كنت تسىء فأحسن ، فحين أحسنت أسىء !

١١ ـ وقال الأحنف بن قيس: ماعادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، و إن كان دونى عرفت قدرى عليه ، و إن كان نظيرى تفضلت عليه .

١٢ ـ وأسمع رجل ابن قصيرة كلاماً جارحا فأعرض عنه فقال له الرجل: إياك أعنى . فقال له : وعنك أعرض .

١٣ ـ وقيل عن بنت عبدالله بن مطيع : أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن ابن عوف الزهرى ـ وكان أجود قريش فى زمانه : مارأيت رجلا ألأم من إخوانك ، فقال لها : مَه ، ولِمَ ذلك ؟

قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، و إذا أعسرت تركوك .

قال : هذا والله من كرمهم ، يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا حال الضعف عنهم .

منتهى الحلم *

قيل للأحنف بن قيس : مِمَّن تعلمت الحلم ؟

قال : من قيس بن عاصم ، رأيته يوماً قاعداً بفناء داره ، وإذا برجل مكتوف ، ورجل مقتول .

فقيل له : هذا ابنك قتله أخوك هذا .

فوالله ماقطع كلامه،ولم يتحرك من مكانه ، ثم التفت إلى أخيه وقال له: أثمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ولدى .

ثم قال لابن له آخر : قم يا بُنى فَوارِ أخاك (ادفن أخاك) وحل كتاف عمك ، وسُق إلى أمك مائة ناقة دِيةَ ابنها فإنها غريبة .

ثم أنشد يقول :

أقول للنفس تأساء وتعزيةً ... إحدى يدَىَّ أصابتنى ولم تُرِدِ

كِلاهما خَلَفٌ من فقـد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

مثال آخر من حلم الأحنف

جاء رجل إلى الأحنف بن قيس بإيعاز من آخرين وجعل يسيئه و يشتمه، والأحنف صامت لا يتكلم .

وما زال الرجل يفوه بما جادت به القريحة ، والنفس الصغيرة ، حتى أراد الأحنف القيام للغـداء ، فأقبـل على الرجل وقال له : ياهـذا إن غداءنا قد حضر ، فانهض بنا إليه إن شئت .

حلم مَعن بن زائدة

كان معن بن زائدة أميراً على العراق ، وكان له فى الكرم اليد البيضاء ،

وهو من الحلم على أعظم جانب .

تقدم إليه أعرابى ذات يوم يمتحن حلمه ، فلما وقف قال :

« أتذكر إذ لحافك جلد شاة   وإذ نعلاك من جلد البعير ؟ »

قال مَعن : أذكر ذلك ولا أنساه .

فقال الأعرابى :

« فسبحان الذى أعطاك ملكاً   وعلّمك الجلوس على السرير »

قال مَعن : سبحانه وتعالى سبحانه .

فقال الأعرابى :

« فلست مسلّماً إن عشت دهراً   على مَعن بتسليم الأمير »

قال مَعن : يا أخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك فى الأمر .

فقال الأعرابى :

« سأرحل عن بلاد أنت فيها   ولو جار الزمان على الفقير »

قال مَعن : يا أخا العرب ، إن جاورتنا فمرحباً بك ، و إن رحلت فمصحوباً بالسلامة

فقال الأعرابى :

« فجد لى يابن ناقصة بشىء   فإنى قد عزمت على المسير »

فقال مَعن : أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره .

فأخذها وقال :

« قليل ما أتيت به وإنى   لأطمع منك بالمال الكثير »

قال مَعن : أعطوه ألفاً آخر .

فأخذها وقال :

« ســألت الله أن يبقيك ذخراً   فما لك فى البرية من نظير »

قال مَعن : أعطوه ألفاً آخر .

فقــال الأعرابى : يا أمير المؤمنين ، ماجئت إلا مختبراً حلمك ، لما بلغنى عنه ، فلقد جمع الله فيك مالو قسم على أهل الأرض لــكفاهم .

قال مَعن : ياغلام ، كم أعطيته على نظمه ؟

قال : ثلاثة آلاف دينار .

قال : أعطه على نثره مثلها .

فأخذها ومضى فى طريقه شاكراً لــكرمه ، قانعاً بمنتهى حلمه ، وصار يضرب به المثل فى الحلم (أحلم من مَعن بن زائدة) .

حلم معاوية بن أبى سفيان

كان لمعاوية بن أبى سفيان عبيد فى أرض له تجاور أرضاً لعبد الله بن الزبير فدخل أولئك العبيد أرض عبد الله فــكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد ، فيا معاوية إن عبيدك دخلوا أرضى ، فانههم عن ذلك وإلا كان لى ولك شأن والسلام .

فأخبر معاوية يزيد ابنه واستشاره فقال :

ابعث إليه بجيش أوله عنده ، وآخره عندك يأتوك برأسه .

فقال معاوية : غير هذا أوفق وأولى .

ثم كتب إلى عبدالله يمدحه و يعظمه ، و يطلب منه ضم الأرض بعبيدها إليه

فأجابه عبدالله بقوله : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام .

فأخذ معاوية الـكتاب ودفعه إلى يزيد فتهلل وجهه فقال له :

يابنى ، من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب ، فإذا ابتليت بشىء من هذا فداوه بهذا الدواء .

حلم أبى حنيفة رضى الله عنه

شتم أبا حنيفــة رجل وهو فى درسه وأكثر ، فما التفت إليه ، ولا قطع كلامه ، ونهى أصحابه عن مخاطبته .

فلما فرغ وقام ، تبعه إلى باب داره ، فقام على بابه ، وقال للرجل : هــذه دارى ، وإن كان بقى معك شىء فأتمه حتى لا يبقى فى نفسك شىء . فاستحيا الرجل .

« عن الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان »

حلم عمر بن عبد العزيز

لما وُلى عمر بن عبد العزيز خرج ليلةً ومعه حرسىّ فدخل المسجد ، فمرّ فى الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال :

أمجنون أنت ؟

قال : لا .

فهمّ به الحرسى ، فقال له عمر :

مَه ؛ إنما سألنى أمجنون أنت ؟ فقلت : لا . «سيرة عمر بن عبدالعزيز»

حلم زين العابدين وعفوه وإحسانه

خرج زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إلى المسجد فسبه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين ، وقال :

ياهذا ، أنا أكثر مما تقول، وما لاتعرفه عنى أكثر مما عرفته ، فإن كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك ، فخجل الرجل واستحيا ، فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم ، فمضى الرجل وهو يقول :

أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله ﷺ . « التبر المسبوك »

حلم هارون الرشيد

دخل الخليفة هارون الرشيد الحرم يطوف بالكعبة ، ومُنع الناس من الطواف حتى يخلُو المكان للخليفة وحده ، فسبقه أعرابى ، وجعل يطوف معه ، فاغتاظ أمير المؤمنين والتفت إلى حاجبه ، يريد بذلك أن يمنع الرجل ، فكلمه الحاجب .

فقال له الرجل الأعرابى : إن الناس سواء فى هذا المكان .

فلما سمع منه الرشيد ذلك أمر حاجبه بتركه ، فكان كلما أراد الخليفة أن يعمل شيئاً تقدم الأعرابى وسبقه .

فلما انتهى الخليفة من الطواف والصلاة ، أرسل إلى الأعرابى ليجىء إليه .

فقال الأعرابى : لا حاجة لى به ، فإن كان هو يحتاج إلىّ وجب عليه المشى إلىّ .

فغضب حاجب الخليفة ، وحكى لأمير المؤمنين ماسمعه من الرجل .

فقال الخليفة : إنه صادق فيما يقول ، وعلينا أن نمشى إليه .

فقام حتى وقف بجوار الأعرابى ، وقال له : السلام عليك .

فرد عليه السلام .

ثم سأله الخليفة وقال له : يا أخا العرب ، اجلس هنا بأمرك ؟

فقال له الأعرابى :ليس البيت بيتى ، إنما هو بيت الله ، وكلانا فيه سواء .

فدهش الخليفة من جوابه ، لعلمه أنه لا يصح لأحد أن يجيب أمير المؤمنين بمثل هذا الجواب ، غير أنه أظهر له الحلم ، ولم يغضب منه .

وجلس بجانبه ، ثم أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، فأجابه عنها ، فسرّ الرشيد منه، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولكن هذا الرجل لم يقبلها منه .

فسأل عن أهله و بلده ، فعلم بعد ذلك أنه سيدنا موسى الرضا بن جعفر الصّادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

مثـــال

من حلم المأمون

حدّث سليمان الورّاق قال : مارأيت أعظم حلماً من المأمون ، دخلت عليه

يوماً وفى يده فص مستطيل ، من ياقوت أحمر ، له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده و يستحسنه ؛ ثم دعا برجل صائغ وقال له :

اصنع بهذا الفص كذا وكذا ، واحلل فيه كذا وكذا ، وعرّفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصَّانع وانصرف

ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاثة أيام فتذكره ، فاستدعى الصائغ ، فأتى وهو يرتعد ، وقد امتقع لونه (اصفرّ لونه) فقال المأمون : مافعلت بالفص ؟

فتلجلج الرجل ، ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ؛ ثم التفت إليه وأعاد القول .

فقال : الأمان يا أمير المؤمنين . قال : لك الأمان فأخرج الفص أربع قطع ، ثم اعتذر للخليفة وقال له : إن الفص سقط من يدى وأنا أصوغه فوقع على السندان فانكسر .

ولما كان المأمون حليماً أظهر للصائغ أنه غير متكدر،وأنه سرّ من شكل الفص الآن ، وأخبره أن يغير شكله ، وأمره بصنعه على هيئة مخصوصة ،وكان معه فى ذلك الوقت أناس ، فلما خرج الرجل من عنده قال : أتدرون كم قيمة هذا الفص ؟

قلنا : لا ، قال : اشتراه الرشيد بمائة وعشرين ألفاً .

يستخلص من هذه الحكاية : أن الإنسان يستعمل الحلم والرأفة معالعمال وألّا يغضب فيما لايفيد ، ولا يتكدر مما لامرد له ، وأن يعفو عن هفوةالصانع

ما دامت غير مقصودة ، وأن صِدق الصائغ فى ذكر ما حصل للفص ، كان له أثر طيب فى عفو المأمون عنه .

مثال ثان

من حلم المأمون وعفوه

حكى عن المأمون أنه قال ليحيىٰ بن أكثم يوماً : سر بنا نتفرج . فسارا فبينماهما فى الطريق و إذا بمقصبة خرج منها رجل بغتة للمأمون يتظلم له ، فنفرت منه دابته فألقته على الأرض صريعاً ؛ فأمر بضرب عنق ذلك الرجل .

فقــال : يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، و يتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه ،ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على ردّ مالم تفعل أقدر منى على ردّ ماقد فعلت.

قال :فبكى المأمون ، وقال :بالله أعد علىّ ماقلت. فأعاده ، فالتفت المأمون إلى يحيىٰ بن أكثم وقال: أماتنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه،والنبى ﷺ يقول : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » والله لا وقعت له إلا وأنا قائم على قدمى فعفا عنه ، وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه .

فلمـا همّ المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، بيتان قد حضرانى ، ثم أنشد :

« ما جاء بالرفد إلا وهو مُعتذر ولا عفا قطّ إلا وهو مُقتــدر »
« وكلمـــــا قصدوه طال نائله كالنار يؤخذ منها وهى تستعر »

« المستطرف ج ٢ »

يستنتج من هذه الحكاية مقدار حلم المأمون واعتذاره للرجل مع أنه كان سبباً فى وقوعه من فوق ظهر حصانه الذى كان راكبه ، وحلم الرجل يدل على عظمته .

لا يعرف الحليم إلا عند الغضب

غضب عبد الملك بن مروان على رجل فقال :

والله لئن أمكننى الله منه لأفعلن به كذا وكذا .

فلما صار بين يديه قال له :

يا أمير المؤمنين ، قد صنع الله ما أحببت ، فاصنع ما أحب الله ، فهدأ غضبه وعفا عنه ، وأمر له بصلة .

الحلم سيد الأخلاق

وقع مرةً بين الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، وأخيه محمد بن الحنفية جدال وافترقا متغاضبين ؛ فلما وصل محمد بن الحنفية إلى منزله كتب إلى الحسين ما يأتى :

« أما بعد » فإن لك شرفاً لا أبلغه ، وفضلًا لا أدركه ، أبونا على ، لا أفضلك فيه ولا تفضلنى ، وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ولو كان ملء الأرض نساء ماوفين بأمك ، فإذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وتعال فترضنى ، وإياك أن أكون أسبق منك إلى الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام .

فلما قرأها الحسين ، لبس رداءه ونعليه ، وجاء إليه وتراضيا .

حلم الملــــوك

كان الملك يوسف الثـانى (امبراطور ألمانيا) أحد ملوك أوروبا لا يحب التظاهر والأبهة والفخفخة ، بل كان وديع الأخلاق حليماً كريماً .

ومما يؤثر عنه : أنه خرج ذات يوم مرتدياً ثوباً بسيطاً ، راكباً عربة عادية ووراءه خادمه ، وأخذ يجول فى أنحاء المدينة ففاجأه المطر ، وهو عائد من نزهته وبينما هو فى الطريق ناداه جندى فأشار له بالوقوف فوقف .

فقال له الجندى : لا تؤاخذنى يا عزيزى إذا طلبت منك مكاناً بجانبك وأظننى لا أضايقك كثيراً ، حيث أنت وحدك فى العربة .

فقـال له الملك المتنـكر : تفضل يا عزيزى اجلس بكل ارتيـاح ، فمن أين أنت آت ؟

فأجابه الجندى : أنا آت من منزل صديق لى يسكن فى قرية واقعـة فى هذه الأنحاء وقد تناولت عنده الفطور .

فقال له الملك : وماذا تناولت عنده من الأطعمة الفاخرة ؟

فقال : وما تظننى أكلت يا عزيزى ؟

فقال الملك : ومَن أعلمنى ؟ لـكن ربما تناولت شيئًا من اللبن والشاى.

فقال الجندى : أحسن من هذا .

فقال الملك : من الزبد والجبن .

فأجاب : أحسن من هذا .

فقال : أكلت فخذاً من الضأن .

قال الجندى وقد داخله الخوف : أنت ضابط عظيم .

فأجاب الملك : أحسن من هذا .

فقال الجندى وقد اضطرب : إذاً قائد جيش .

قال الملك : أحسن من هذا .

فانتفض الجندى وارتعش قليلاً وقال : يا ربى ، هذا هو الملك .

فأجابه : هو بعينه، وحلّ أزرار ثوبه، فظهرت الأوسمة المنثورة على صدره تتلألأ ، وقد خطفت بأنظار الجندى الذى أراد أن يقذف بنفسه من العربة ، فأمسك به الملك وقال له : لا تخف ياعزيزى ، ولا تجزع ، حتى أوصلك إلى مسكنك كما اتفقنا .

وكان الجندى إذ ذاك فى حالة يرثى لها من شدة الخوف ، وفرائصه ترتعد فقال له الملك : هدّئ روعك يا عزيزى ، ولا تخف حتى نأكل الديك الرومى معاً .

ازداد الجنــدى ارتعاشا وانتفاضًا كعصفور بلّله القطر ، وظن أن الملك يتوعده بسوء ، حتى وصلت بهم العربة إلى المــكان الذى عينه الجندى فوقف الملك حتى نزل الجندى ، وقد بلغت روحه الحلقوم، فودّعه بكل وداعة وحلم، وسار الملك من هذا الحين ، ينعم على هذا الجندى بإنعاماته الجزيلة، حتى غمره بإحسانه ، كما غمره بلطيف حلمه وحنانه .

الغضب لا يسقط المروءة

كان بعض الملوك قد غضب على بعض حاشيته فأسقط الوزير اسمه من ديوان العطايا ، فقال له الملك : أبقه على ما كان عليه ؛ لأن غضبي لا يسقط مروءتي .

الحلم عند ثورة الغضب

أرسل والد ابنه الصغير الوحيد إلى المكتب فكان ولداً مجتهداً مواظباً ، وبقي كذلك إلى أن بلغ أشده ؛ ثم انقلب على عقبيه وصار يتوانى وينصرف إلى اللهو ، ولم يلبث حتى أغراه أصحاب السوء فهرب من بيت أبيه إلى أماكن اللعب والفسق ، وجعل ينفق في ذلك أموالاً اختلسها من أبيه وانقطع عن المكتب .

فلما اكتشف والده جريمته تكدر كل الكدر ، وبحث عنه حتى أصابه ، فإذا به يلهو ويلعب ، وعند ما رأى الولد أباه أخذته الرعدة واكفهر وجهه خجلا وخوفاً ؛ غير أن أباه كظم غيظه وناداه برفق ، وسأله عن سبب نفرته من المنزل ، فلم يجد الولد جواباً يعتذر به إلا قوله : بأنه فقد الدنانير التي عهدت إليه ، وأوقفه الخجل عن أن يشاهد أباه ، فقال له والده : إنه ما كان ينبغي أن تخجل ، بل كان الواجب أن تنبئني بما حدث فأصدقك ، ثم صاحبه إلى البيت وجالسه وسامره كأنه لم يحدث شيء ، ورأى الوالد أن فيما جرى عبرة لنفسه ، فلم يتغافل عن ولده ، وبقي يسامره ، ويروضه على الخير ، ويسدد خطواته ، فأفلح الولد .

فلو لم يكن هذا الوالد العاقل حازماً ، ثابت الجأش ، لبادر ابنَه حين رآه بالصفع ، وجرّه مهاناً إلى المنزل ، ولطال الجدال والعراك فيزيد الولد نفوراً وتشرداً ، مسترسلاً فى الغواية إلى حد لا مآب له منه .

ولو لم يكن حليماً حكيماً لملأ الأسماع والأنحاء تشنيعاً فى ذنب ابنه،وجعل يعيبه الآونة بعد الأخرى ، ولوضع له أقبح الصفات والأسماء ؛ ولكنه تجاوز عن هذا الذنب ، وطرد عن نفسه الغضب ، لحمد الولد ربه على هذا التجاوز ، وخشى أن يرتكب من بعد وزراً ، واستكمل صفة الأمانة والوفاء .

حكمة بالغـــــة

روى أبو هريرة أن رجلاً قال : يارسول الله مرنى بعمل وأقلل . قال : « لا تغضب » ثم أعاد عليه ، فقال : « لا تغضب » .

الغضب ونتائجه السيئة

١ ـ حدث ذات مرة أن أحد الموظفين فى دواوين الحكومة أخذ بعض الحبر من محبرة زميله ، ولم يترك له فيها غير القليل ، فلما وجد زميله الحبر فى محبرته قليلاً استشاط غضباً ، وأخذ يسأل عمن أخذ الحبر ، فجاوبه بلطف أنه احتاج إليه فأخذه ، فقام ذاك يريد أن يأخذ محبرة زميله عنوةً ، فردّه بالعتاب الحسن ، فازداد غضبه ، وغليُ الدم فى عروقه ، فصار يرده زميله رداً جميلاً ، وهو لا يزداد إلا فوراناً وحدةً ، حتى وصلت به الحال إلى الهياج ، فهجم على محبرة زميله وقلبها فى محبرته ، فانتثر رشاش الحبر على ملابسه فتلوث ثوبه الجديد ، فضحك زميله هزؤاً ، وترك له الغرفة وخرج .

فازداد غضب ذاك إذ رأى ثوبه الجديد ملوثاً ، ورأى زميله يهزأ به فجلس للحال وكتب استقالةً مطولةً ، فلما قرأها الرؤساء ، وعلموا سر المسئلة ضحكوا كثيراً ، وتعجبوا من ذلك الشخص الذى كان على وشك أن يضيع مستقبله لشىء تافه لا فى العير ولا فى النفير .

فلو أنه تجاوز لزميله عن بعض هذا الحبر ، وطلب حبراً آخر من المخزن لكان بهذا الحلم يصون ملبسه من التلوث ؟ ونفسه من هياج الدم ، ولا يعرض وظيفته لخطر الاستقالة ، مع أنه أحوج الناس للبقاء فيها . فبئس الغضب ، وبئست نتيجته ، وما أحسن الحلم وما أحلاه ! وما أحسن الروية قبل الغضب!

٢ ـ حدث فى حى راغب باشا بالإسكندرية أن شاباً فاسد الأخلاق سيىء

السريرة حتى على نفسه ووالدته جناية كانت سبباً فى وفاتهما معاً .

وتفصيل ذلك : أن هذا الشاب خرج من السجن منذ بضعة أيام لحكم صدر عليه بتهمة ارتكبها فى الماضى ، فجاء منذ يومين إلى والدته وطلب منها بعض النقود ، ولما لم تجبه إلى طلبه استشاط غيظاً ، ورمى على نفسه مصباحاً مشتعلاً فاشتعلت النار بملابسه ، فأرادت والدته إطفاءها فاتصلت بها وأصيبا معاً بحروق بالغة توفيا بسببها بعد وصولهما إلى المستشفى .

وهذه نتيجة الغضب . (المقطم فى ٩ مايو سنة ١٩١٦)

إطفاء نار الغضب

بحسن الجواب وجميل الأدب

خرج أمير للصيد ومعه خادمه ، و بينما هما فى الطريق طلع عليهما نمر هائل فخاف الخادم وتسلق شجرة يتقى فوقها هجمات الوحش الكاسر .

أما الأمير فثبت ثبات الأسود ، وقابل النمر بعزم أكيد ، وقلب من حديد وأخذ معه فى المصارعة حتى صرعه ، فنادى خادمه أن يأتى إلى نجدته ليذبح النمر ، فلم يجسر الخادم ، بل بقى فى مكانه ، واستجمع الأمير قواه حتى تمكن من عدوه ، وأجهز عليه ، فالتفت فرأى خادمه قد نزل من الشجرة و بادر يهنئه بالنصر ، فانتهزه وغضب عليه لما أبداه من الجبن .

فقال الخادم بأدب ولطف وخشوع : يامولاى عند صراع الأسد والنمر يلزم الكلب الحياد .

فضحك الأمير ، ونسى ما كان منه .

علاج الغضب

كان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره : إذا رأيتني غضبانَ فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة .

وكان فى الأولى : إنك لستَ بإله ، وإنك ستموت ، وتعود إلى التراب ، فيأكل بعضك بعضاً .

وفى الثانية : ارحم مَن فى الأرض ، يرحمك مَن فى السماء .

وفى الثالثة : اقض بين الناس بحكم الله ، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك .

وكان بعض ملوك الطوائف ، إذا غضب وضع أمامه مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه .

ولذلك قال عُمر رضى الله عنه : من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير .

ومن علاج الغضب أن ينتقل الإنسان من الحالة التى هو فيها إلى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال ، والتنقل من حال إلى حال .

وكان هذا مذهب المأمون إذا غضب أو شتم .

وكانت الفرس تقول : إذا غضب القائم فليجلس ، وإذا غضب الجالس فليقم

ومن علاج الغضب : أن يتذكر المرء مايؤول إليـه الغضب من النـدم ومذمة الانتقام .

وقد كتب (أبرويز) إلى ابنه (شيرويه) إن كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقن دماً ، وإن نفاذ أمرك مع كلامك ، فاحترس فى غضبك،

من قولك أن تخطئ ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ، فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلماً .

ومن علاجه أيضاً : أن يذكر عطف القلوب عليه ، وميل النفوس إليه ، فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير الناس وبعدهم منه ، فيكف عن متابعة الغضب ، فيرغب فى التآلف وجميل الثناء .

كما يتضح من الحكاية الآتية :

يحكى أن رجلاً زار صديقاً له ، وعند دخوله البيت وجد اثنين من أولاده كل منهما واقف فى زاوية من الدهليز ، ولما أبصراه تقدما وسلما عليه ؛ فسألهما عن سبب وقوفهما بهذه الحالة ، فقال أكبرهما : إن والدتنا أوصتنا أن نتباعد إذا غضب أحدنا من الآخر حتى يزول غضبنا .

ثم رجع كل منهما إلى مكانه وهو مملوء من الغيظ والامتعاض من أخيه .

فدخل الرجل على صديقه ، وبعد قليل خرج ، وإذا هما يلعبان معاً منشرحى الصدر بفضل ابتعادهما وقت حصول سوء التفاهم بينهما وتغلبهما على الشر .

الصبر والثبات

صبر النبي الكريم على الأذى

قد اتصف النبي الكريم ﷺ بالصبر وشدة الاحتمال والعفو عند المقدرة. كان لايزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، لقي في سبيل الله تعالى الشدائد ، وتعرض للمكاره وهو لا يزداد إلا ثباتاً ومضاءً وإقداماً ويقول :

« والله لو وضعوا (يريد قريشاً) الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » .

ولما أصابه من قريش ما أصابه يوم أُحُد شقّ ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوتَ عليهم .

فقال ﷺ : « إني لم أبعث لعّاناً ؛ ولكني بُعِثْتُ داعياً ورحمةً ، اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون » .

المسلمون وفتح القادسية *

هذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع فارس ، قُتل فيها عظماء الفرس ، وكبار قوّادهم ، وقُتل من الجيش كثير غرقاً وقتلاً ، وقاتل فيها أغلب رؤساء العرب ، لأن عُمر لم يترك أحداً من ذوى النجدات يتأخر عنها ، وكان المسلمون لايذكرون ما بعدها من الوقائع ، وأقام سعد (بالقادسية) شهرين ينتظر أمر عُمر حتى جاءه الأمر بالتوجه لفتح المدائن ، وتخليف النساء والعيال

(بالعقيق) مع جند كثيف يحوطهم ، وعهد إليه أن يشركهم فى كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم ، ففعل وسار بالجيش لأيام بقين من شوال وكان فل المنهزمين لحق ببابل ، وفيهم بقايا الرؤساء مصممين على المدافعة .

وكان المسلمون فى هذه الموقعة يحامون عن دينهم ، والفرس يحامون عن دولتهم ، ولكن أين هؤلاء ممن يحارب لتكون كلمة الله هى العليا ؟

واستمر القتال، فقال القعقاع : إن الدائرة تكون لمن صبر ساعة،فاصبروا ساعة (فإن النصر مع الصبر) فانضم إليه جماعة من الرؤساء ، واستمروا يقاتلون حتى قام قائم الظهيرة ، فابتدأ الفرس بالتقهقر وانهزموا .

وأخذ(ضرار بن الخطاب الفهرى)الراية العظمى هذا اليوم ،(يوم القادسية) و بعد تمام الهزيمة أمر سعد بجمع الأسلاب والغنائم ، وكانت شيئاً كثيراً ، فقسمها كما أمر الله سبحانه وتعالى ، وهنأ جنوده بهذا النصر المبين ، و بعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وكان رضى الله عنه يخرج كل يوم من المدينة يتنسم الأخبار حتى يرده حر الظهيرة فلما جاء البشير لاقاه عمر وهو يسير سيراً حثيثاً فسأله عمر : من أين ؟ فأخبره الرجل : أنه آت من قبل سعد بن أبى وقاص .

فقال : ياعبد الله حدثنى . قال : هزم الله المشركين ، وعُمر يخب وراءه، والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين

فقال البشير : هلا أخبرتنى رحمك الله ؟

فقال عُمر : لا بأس عليك يا أخي

باختصار

عن كتاب إتمام الوفاء

الصبر جُنَّة واقية

حكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق .

فصبرت ، وردت أمرها إلى الله تعالى ، ولم تَدْعُ عليه ، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه ، فسعى فى إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حَبراً من أحبار بنى إسرائيل فشكا إليه ، فقال : لاأجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ؟ فأرسل إليها من قال لها : أين دجاجتك ؟

فقالت : سُرقت . فقال : لقد آذاك من سرقها . قالت : قد فعل ، ولم تَدعُ عليه قال : وقد فجعك فى بيضها . قالت : هو كذلك .

فما زال بها حتى أثار الغضب منها ، فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه فقيل لذلك الحبر : مِن أين علمت ذلك ؟

قال : لأنها لما صبرت ولم تدعُ عليه انتصر الله لها ؛ فلما انتصرت لنفسها ودَعت عليه سقط الريش من وجهه .

صبر حفصة لفقد سيدنا عمر بن الخطاب

لما حضرت الوفاة عُمر بن الخطاب رضى الله عنه قالت حفصة ابنته :

ياأبتاه! مايحزنك وفادتك على رب رحيم ، ولاتبعة لأحد عندك، نعم الشفيع

الك العدل ، لم تخفَ على الله عز وجل خُشْنَةُ عيشك ، وعفاف نهمتك ، وأخذك بأكظام المشركين والمفسدين فى الأرض ، ثم أنشأت تقول :

« أكظُم الغلة المخالطـــة القلــب وأعزّى وفى القُران عزائى »

« لم تـكن بغتــةً وفاتك وحداً إن ميعاد من ترى للفنـــاء »

الصبر والجلد ، عند فقد الولد

١ ـ روى أن أعرابية مات ولدها ، فلما عزيت فيــه قالت : ما أسرع انقطاع ما كان له مدة ، وفناء ما كان له وقت وعدة ! وإنما يأتى أمر الله بغتة فإذا جاء فلا استعتاب ولا رجعة ، ولا امتناع منه بجلد ولا قوة .

٢ ـ مات (لكسرىٰ) ولد فاشتدّ جزعه عليه ، فدخل عليه (بزرجمهر) فقال : لم أحضر مجلس الملك لأعزيه ؛ ولـكن لأتأدب بحسن صبره .

فقال كسرىٰ . اضطرنى والله إلى الصبر .

لا يعرف الصبور إلا عند الشدة

دعا أحد الـكرماء بعض أصحابه إلى ليلة أنس أقامها احتفاء بهم ، وكان هو وولده الشاب قائمين على خدمتهم من أول الليــل ، فغاب هـذا الولد عن عين أبيه ، ولما تفقّده وجد أنه وقع من شرفة الدار فسقط ميتاً ، ورأى أن والدته وإخوته والخدم سيصيحون ويبكون ، فيتغير الحال ، ويبدل الأنس بالبؤس ، فأقسم عليهم ألّا يتفوّه منهم أحد بكلمة حتى ينصرف القوم ، وحتى لا ينغّض عليهم سرورهم ، فامتثـلوا أمره ، وعاد إلى القوم واستمر فى إظهـار دلائل المسرة والأنس بهم .

فسأله أحـد أصحابه عن ذلك الولد الشاب ، فقال والده : لعله قد نام ، وأدركهم الليل و باتوا فى سرورهم لايشعرون بما نزل من قضاء الله على مضيفهم وقدم لهم الطعام فأكلوا ، ولما همّوا بالانصراف قال لهم : لعلكم تحضرون تشييع جنازة ولدى فإنه قد مات ليلة أمس ، فلم يبق منهم أحد إلا استعظم مروءته ، وأكبر جميل صبره .

مثال الرجل الصبور الشكور

بينما كان أحد الأساتذة جالساً يلقى درساً على تلاميذه إذ جاءه مَن أخبره بوفاة ابنه الوحيد ، وكان فى ريعان الشباب ، فصبر ، ولم يظهر الاضطراب ولم يستول عليه الكدر ، واستمر فى إلقاء درسه كما كان .

فلما انتهى ، سأله أحد مستمعيه ممن أدهشهم أمره : كيف لم يسلبه الحزن ثوب الثبات برهةً عند مفاجأته بالخبر ؟ فقال له :

لو فاجأتنى النازلة على غرة لجزعت وحزنت ، ولكن مازلت أقدر لابنى منذ ولادته حلول أجله فى كل يوم من أيام حياته ، ولمثل هذا اليوم كنت أعدّه من زمن طويل ، وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرته خلسةً اختلستها من الدهر ، حتى مضى على هذه العارية عشرون عاماً ، فشكرى لله اليوم على أن أبقاها فى يدى هذه المدة يقوم مقام الحزن عند غيرى لدى استردادها :

الهمّ مفترق وما أحد خلى

عند ما شعر الإسكندر بالوفاة كتب إلى أمه بمقدمات للتصبر بمواعظ ذكرها فى كتابه ثم قال :

يا أمَّاه ، إذا أنا مت فاصنعى طعاما حسنا كاملاً ، وشراباً لذيذاً حلواً وأحضرى له كافة الناس ، ما عدا من نابته من الدهر نائبةٌ ، أو أصابته من الزمان مصيبة ، ليكون مأتم الإسكندر مخالفاً لمأتم العامة ، ويكون لك فى ذلك الذكر والصيت .

فلما مات عملت بوصيته ، وبالغت فى إعداد الطعام والشراب ودعت الناس إليه ، مشترطة ما أوصى به ، فلم يأتها أحد ، فقالت :

ما بال الناس مع تقدمنا إليهم قد تخلفوا عنا ؟ فقيل لها :

لقد أمرت ألا يحضره من أصابته مصيبةٌ ، ولا يخلو أحد من مصيبة والهمَّ مفترق وما أحد خلىّ .

فعلمت أن الاسكندر عزاها فى نفسه بما أوصاها به .

ما أجمل الصبر !

لما اشتدَّ البلاء بأيوب عليه السلام قالت له امرأته :

هلا دعوت الله ليشفيك مما أنت فيه فقد طالت علّتك ؟

فقال لها :

ويحك ! لقد كنا فى السراء سبعين سنةً ، فهلا نصبر على الضراء مثلها ؟

فما لبث أن عوفى فى جسمه ، وطابت نفسه ، وصار يضرب به المثل فى الصبر ؛ أما يعقوب عليه السلام ، فإنه لما ابتلى بفقد ولده ، وذهاب بصره واشتداد حزنه ، قال : فصبر جميل .

وكذا يوسف عليه السلام ، لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه فى ظلمة الجب وبيعه

كما يباع العبد ، وفراقه لأبيه ، و إدخاله السجن ، وحبسه فيه بضع سنين ، وأنه تلقى كل ذلك بصبر وقبول ، فلاجرم أورثهما صبرهما جمع شملهما ، واتساع الملك فى الدنيا مع النبوة فى الآخرة .

أما نوح عليه السلام فقد نصره الله بصبره ، وانتقم له من قومه ، وجعله « الأب الثانى للبشر » .

أما إبراهيم عليه السلام فقد نجّاه الله من النار التى كانت أُعدّت لإحراقه بقوله تعالى : ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

ثم أهلك نمروذ وقومه ، وانتقم منهم ، وظفر إبراهيم عليه السلام بهم ، وهـذا ثمرة صبره ، وعدم جزعه ، وتفويض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ، وتوكله عليه ، ووثوقه به .

فما أجمل الصبر ! وما أحسن قول القائل :

العسر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب تعقبه الراحة ، والضيق تعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهى الأمر تنزل الرحمة ، فالموفق من رُزق صبراً وأجراً ، والشقى من ساق إليه القدر جزعاً ووزراً .

أنجع دواء للصبر

روى أن (أنوشروان) سخط على وزيره (بزرجمهر) فسجنه فى بيت مظلم وأمر أن يصفد (يشدّ) بالحديد ويلبس الخشن من الصوف وألا يزاد فى كل يومين على قرصين من الخبز ودورق ماء

فأقام شهوراً على هذه الحال لا تسمع له شكوى .

فقال لهم (أنوشروان) : أدخلوا عليه أصحابه ، ومروهم أن يسألوه عن حاله ثم ائتونى بما يظهر منه .

فدخل إليه جماعة من أخصائه ، فإذا هو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ناعم البال ، فقالوا له :

أيها الحكيم ، أنت فى هذه الحال من الضيق ، وشظف العيش والشقاء ومع هذا فإن سحنة وجهك ، وصحة جسمك ، على حالها لم تتغيرا ، حتى كأنك فى ترف ونعيم .

فقال :

إنى عملت دواء للصبر مركبا من خمسة أخلاط ، فأتناول منه كل يوم شيئا ، وهو الذى أبقانى على ما ترون .

فقالوا له :

صِفْهُ لنا ، فلعلنا ننتفع به عند البلوى

قال : نعم ، أما الخلط الأول فهو : الثقة بالله عزّ وجلّ .

وأما الثانى : فالصبر خير ما استعمل الممتحن .

وأما الثالث : فإن لم أصبر فأى شىء أعمل ؟ ولا أعين على نفسى بالجزع

وأما الرابع : فقد يمكن أن أكون فى شرّ أشد مما أنا فيه .

وأما الخامس : فمن ساعة إلى ساعة يأتى الله بالفرج القريب .

فلمآ بلغ أنوشروان ما قاله ، أطلقه وأعزه ، وأعاده إلى حظوته عنده جزاء حسن صبره .

صبر الحكماء

احتسب عالم فى ولد له ، فلما ووري التراب ، سألوه عن أى آى القرآن الكريم يكتبون على قبر ولده كما يكتب بعضهم على قبورهم .

فقال : إن آيات الكتاب الكريم أرفع من أن تكتب على القبور ، فقد يعدو الزمان عليها فتطؤها الناس بأقدامهم إذا طال العهد على الجدث وتهدم ، وإذا كان لابد من النقش على اللحد (القبر) فانقشوا :

كان ولدى كزهرة الربيع ، فتعهدتها حتى نمت وأزهرت ، ولما أن جاء الخريف ذوت وذبلت ، فصابنى بها مصاب الزارع فى زرعه ، حرث وغرس ، فلما أن نضج الزرع أرسل الله عليه وابلاً من السماء .

فهو جل جلاله ، منح ما أعطى ، واسترد ما منح ، فله الحمد من قبل ومن بعد

من صبر ظفر

قال الأصمعى : خرجت هارباً من (البَصرة) من وال بها فصرت إلى البادية فأقمت بها ما شاء الله ، ثم قدم أعرابى من (البَصرة) فسألته عن أخبارها فقال : مات واليها .

فقلت بشرك الله بخير ، فإنى كنت هارباً منه .

فقال لى : كفيت الهمّ ، ثم أنشد :

« صبّر النفس عند كل مُلِمّ   إن فى الصبر حيلة المحتال »
« لا تضيقن بالأمور فقد تفـ   ـرج غماؤها بغير احتيال »
« ربما تجزع النفوس من الأمـ   ـر له فرجة كحل العقال »

الفرج بعد اليأس

خرجت يوماً للنزهة على شاطئ البحر ، فساقنى القدر جهة الشمال الغربى وأنا غارق فى لجج الهواجس والهموم ، وإذا البحر كأنه انفلق وتجلى على ظهره شبح قارب مقلوب ، فخشيت أن يكون الخيال قد لعب ببصرى ، وجعله يرى كما كان يجيش فى خاطرى ، وتصبو إليه نفسى ، ولولا أنه لا وجود له ، لأن شدة اليأس والقنوط حملتنى على الجزم بأن تلك الأمواج القاسية التى كانت السبب فى تعسى وشقائى لا تحمل إلىّ سفينة النجاح ؛ غير أن الأمل كثيراً ما تسلط على النفوس اليائسة فانتشلها من مهاوى القنوط ، وجاش فى صدرى تلك الساعة من ذكرى بلادى ، وزوجتى وأولادى ، فانتزعت ثيابى ، وخضت فى الماء ، كأنى أسابق الريح ، وكلما ابتعدت عن الشاطىء ازداد تجسم الشبح واقترابه إلى الحقيقة فيدفعنى توقع الفرج إلى الجرى نحو ذلك الملقى الذى لا يقوم ، وأخيراً ازداد البحر على قامتى ، فانطرحت على ظهور الأمواج أسبح بما تجدد فىّ من قوة ونشاط ، حتى وصلت إلى القارب الميمون ، ودرت حوله أختبر متانته ، فألفيته سليماً من العطب ، فدفعته أمامى وأنا سابح ، ليساعدنى تيار المد بتوفيق من الله ورحمته ، حتى بلغت بدء المخاضة فوقفت على قدمى ، أجدد القوة والنشاط ؛ ثم واصلت السير ، والقارب ملقى ، أسحبه حتى احتكّ بقعر البحر فتربصت أنتظر قفول مياه الجزر ، فتبقى سفينتى بالعراء وحينئذ يمكننى أستعين بالملاحين والعمال فى جذبها إلى الساحل . (رحلات جلفر)

بالصبر يُنال الأجر

بنى عبد الملك بن مروان باباً للمسجد الأقصى ، و بَنى الحجاج باباً آخر بإزائه ، فجاءت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك ، وسلم باب الحجاج ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، فكتب إليه الحجاج مامثلى ومثل مولاى إلّا كمثل إبنى آدم ، إذ قر با قر باناً ، فتُقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر .

فكشف عنه الهمّ ، وأذهب حزنه (و بالصبر يُنال الأجر) .

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

كان تاجر قادماً من الموسم راكباً فرساً ، وخلفه هميانه مملوءاً دراهم كثيرة ، فنزلت الأمطار سيولاً وأبتل الرجل ، وغمرت المياه ملابسه ، فلم يستطع صبراً على هذه الحال ، وطفق يتذمر ، وأخذ يشكو إلى الله سوء حاله و يندب سوء حظه الذى دعاه للسّفر فى هذا الوقت الممطر ، وبعد برهة من الزمان مرّ بغابة كثيفة ، فلمح لصاً وراء شجرة يترصده ، و يصوب مسدسه نحوه ، ولكن لحسن حظه ، لما أراد اللص أن يطلق عليه النار لم تنطلق ، لأن البارود ترطب من المطر ، فهرب التاجر بفرسه ونجا بحياته بإذن الله .

فلما وصل إلى محلى الأمان والسّلامة ، قال فى نفسه : تبًّا لى ما أشد رعونتى! وما أكثر ضجرى! لأنى لم أرض بجو ممطر ، مع أنه كان سبباً فى نجاتى ، وهذا فضل ورحمة من الله . فلو كان الجو صحواً ، وأدركنى اللص

بطلقة من مسدسه ، لفارقت الحياة فى الحال ، وأمست أسرتى المسكينة تنتظر عبثاً عودتى إليها ، وحلّت بها مصيبة ، وصارت فى أسوأ حال .

فالمطر الذى تذمرت منه نجى حياتى ، وحفظ علىّ دراهمى ، وأبعد عنى مماتى .

وحقاً إن الذى تخاله مصيبةً عظمى ، كثيراً ما يكون فيه فضل و إحسان ، من عناية الرحمٰن ، وهذا تأييد لقوله تعالى :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

حكايات وأمثال فى فضل العدل

سيدنا عمر بن الخطاب ورسول قيصر ملك الروم

أرسل قيصر رسولاً إلى عُمر بن الخطاب لينظر أحواله ، ويشاهد أفعاله فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟

فقالوا : مالنا ملِك ، بل لنا أمير ، قد خرج إلى ظاهر المدينة .

فخرج الرسول فى طلبه ، فرآه نائماً فى الشمس على الأرض ، فوق الرمل الحار ، وقد وضع بردته كالوسادة ، والعرق يسقط من جبينه إلى أن بلّ الأرض فلما رآه على هذه الحال وقع الخشوع فى قلبه .

وقال : رجل لا يقرّ لجميع الملوك قرار من هيبته ، تكون هذه حالته ؟ ولكنك ياعمر عَدَلت فنمت ، وملكنا يجور ، فلا جُرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً .

وقد وصفه بهذه الحال شاعر مصر الكبير المرحوم حافظ بك إبراهيم :

«وراح صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلاً وهو راعيها»
« وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها »
« رآه مستغرقاً فى نومه فرأى ... فيه الجلالة فى أسمى معانيها »
«فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببردة كاد طول العمر يبليها »
« فهان فى عينه من كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها »

« وقال قولة حق أصبحت مثــلاً   وأصبح الجيل بعد الجيــل يرويها »
« (أمِنْتَ) لما أقمت العــدل بينهم   (فنِمْتَ) نوم قرير العين هانيها »

عدل عُمر بن الخطاب وشفقته برعيته (١) *

قال عبد الله بن العباس عن أبيــه : خرجت ليلةً حالــكةً قاصداً دار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فما وصلت إلى نصف الطريق إلا ورأيت شخصاً أعرابياً جذبنى من ثوبى وقال : الزمنى ياعباس .

فتأملت الأعرابى ، فإذا هو أمير المؤمنين عمر ، وهو متنــكر ، فتقدمت إليه ، وسلمت عليه ، وقلت له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

قال : أريد جولة بين أحياء العرب فى هذا الليل الدامس ، وكانت ليلة قرّ ، فتبعته فسار وأنا وراءه،وجعل يجول بين خيام الأعراب وبيوتهم ويتأملها إلى أن أتينا على جميعها ، وأوشــكنا أن نخرج منها ، فنظرنا وإذا هناك خيمة فيها امرأة عجوز حولها صبية ، وأمامها أثافى عليها قدر ، وتحتها النار تشتعل ، وهى تقول للصبية : رويداً رويداً يا بَنِىّ عما قليل ينضج الطعام فتأكلون .

فوقفنا بعيداً من هناك ، وجعــل عمر يتأمل العجوز تارةً ، وينظر إلى الأولاد أخرى ، فطال الوقوف ، فقلت له :

يا أمير المؤمنين ما الذى يوقفك ؟ سِر بنا .

---

(١) هذه الحــكاية واردة فى منهج وزارة المعارف ضمن مقرر السنة الأولى وقدأثبتناها هنا فى موضع العدل .

فقال : والله لا أبرح حتى أراها قد صَبَّت للصبية فأكلوا واكتفوا .

فوقفنا وقد طال وقوفنا جداً ، ومللنا المكان ، والصبية لا يزالون يصرخون ويبكون ، والعجوز تقول لهم مقالتها السابقة .

فقال لى عُمر : ادخل بنا عندها لنسألها ، فدخل ودخلت وراءه .

فقال لها عمر : السلام عليك ياخالة .

فردَّت عليه السلام أحسن ردّ .

فقال لها : ما بال هؤلاء الصبية يتصارخون ويبكون ؟

فقالت : لِما هُم فيه من الجوع .

فقال لها : ولِمَ لم تطعميهم مما فى القدر ؟

فقالت له : وماذا فى القدر لأطعمهم ؟ ليس هو إلا عُلالة فقط ، وليس لى شىء لأطعمهم منه .

فتقدم عُمر إلى القدر ونظرها ، فإذا فيها حَصباء ، وعليها الماء يغلى ، فتعجب من ذلك وقال لها : ما المراد بذلك ؟

فقالت له أوهِمُهم أن فيها شيئاً يُطبخ فيُؤكل ، فأعلّلهم به ، حتى إذا ضجروا ، وغلب النوم عليهم ناموا .

فقال لها عمر : ولماذا أنت هكذا ؟

فقالت له : أنا مقطوعة : لا أخ لى ولا أب ، ولا زوج ولا قرابة .

فقال لها : لِمَ لا تعرضين أمرك على أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب فيجعل لك شيئاً من بيت المال ؟

فقالت له : لا حيّا الله عُمر ، ونكس أعلامه ، والله إنه ظلمنى .

فلما سمع عُمر مقالتها ارتاع من ذلك وقال لها : يا خالة بماذا ظلمك عُمر بن الخطاب ؟

فقالت له : نعم والله ظلمنا ؛ إن الراعى عليه أن يفتش على حال كل من رعيته ، لعله يجد فيها من هو مثلى ضيق اليد ، كثير الصبيـة ، ولا معين ولا مساعد له ، فيتولى لوازمه ، ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعياله أو صبيته .

فعند ذلك قال لها عمر : عَلِّلى الصبية والساعة آتيك .

قال عباس ثم خرج وخرجت معه ، وكان قد بقى من الليل ثلثه الأخير ، فمشينا والكلاب تنبحنا ، وأنا أطردها إلى أن انتهينا إلى بيت المـال ، ففتحه وحده ، ودخل وأمرنى ، فدخلت معه .

فنظر يميناً وشمالا وعَمِد إلى كيس من الدقيق يحتوى على مائه رِطل ونيِّف .

فقال لى : يا عباس حول على كتفى ، فحملته إياه .

ثم قال لى : احمل أنت جرة السمن هذه ، وأشار إلى جرّة هناك فحملتها وخرجنا ، وأقفل الباب وسرنا ، وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينيه وجبينه فمشينا وقد أتعبه الحمل ، لأن المكان كان بعيد المسافة ، فعرضت نفسى عليـه وقلت له : بأبى أنت وأمى ياأمير المؤمنين ، حول الكيس عنك ودعنى أحمله.

فقال : لاوالله أنت لا تحمل عنى جزائى وظلمى يوم الدين . واعلم ياعباس أن حمل جبال الحديد وثقلها ، خير من حمل الظلامة كبرت أو صغرت ، ولا سيما هذه العجوز تعلل أولادها بالحصى . ياله من ذنب عظيم عند الله ! سر بنا ،

وأسرع يا عباس قبل أن تضجر الصبية من العويل فيناموا كما قالت ، فسار وأسرع وأنا معه ، وهو ينهج من التعب إلى أن وصلنا خيمة العجوز ، فعند ذلك حول كيس الدقيق عن كتفه ووضعت جرة السمن أمامه ، فتقدم هو بذاته ، وأخذ القدر وكبّ مافيها ، ووضع فيها السمن ، وجعل بجانبه الدقيق ، ثم نظر فإذا النار كادت تطفأ .

فقال للعجوز : أعندك حطب ؟

فقالت : نعم يا بنى ، وأشارت إلى الحطب .

فقام وجاء بقليل منه ، وكان الحطب أخضر ، فوضع منه فى النار ، ووضع القدر على الأثافى ، وجعل ينكس رأسه إلى الأرض ، وينفخ بفمه تحت القدر ، فوالله إنى رأيت دخان الحطب يخرج من خلال لحيته ، وقد كنس بها الأرض إذ كان يطأطئ رأسه ليتمكن من النفخ ، ولم يزل هكذا حتى اشتعلت النار ، وذاب السمن وابتدأ غليانه ، فجعل يحرك السمن بعود فى إحدى يديه ، ويخلط من الدقيق مع السمن بيده الأخرى ، إلى أن نضج ، والصبية حوله يتصارخون .

وهنا قال فيه الشاعر الكبير المرحوم حافظ بك إبراهيم مثالاً من رحمته:

« ومن رآه أمام القــدر منبطحا والنار تأخذ منه وهو يذكيها »
« وقد تخلل فى أثناء لحيتــه منها الدخان وفوه غاب فى فيها »
« رأى هنــاك أمير المؤمنين على حال تروع لعمر الله راعيها »
« يستقبل النار خوف النار فى غده والعين من خشية سالت مآقيها »

فلما طاب الطعام طلب من العجوز إناء ، فأتته به ، فجعل يَصُبُّ الطبيخ في الإناء ويبرده ، ويلقم الصغار حتى شبعوا واكتفوا ، وقاموا يلعبون ويضحكون مع بعضهم إلى أن غلب عليهم النوم فناموا .

فالتفت عُمر عند ذلك إلى العجوز وقال لها : ياخالة أنا من قرابة أمير المؤمنين عُمر ، وسأذكر له حالك ، فائتيني غداً صباحاً في دار الإمارة فتجديني هناك لعلك تجدين خيراً .

ثم ودّعها عُمر وخرج ، وخرجت معه فقال لي : ياعباس إني حين رأيت العجوز تعلل صبيتها بحصى أحسست أن الجبال قد زُلزلت واستقرت على ظهري ، حتى إذا جئت بما جئت وأطعمتهم ماطبخته لهم واكتفوا وجلسوا يلعبون ويضحكون ، فحينئذ شعرت أن تلك الجبال قد سقطت عن ظهري . ثم أتى عُمر داره وأمرني فدخلت معه وبتنا ليلتنا .

ولما كان الصباح أتت العجوز فاستغفرها ، وجعل لها ولصبيتها راتباً من بيت المال تستوفيه شهراً فشهراً .
« مجاني الأدب »

سيدنا عُمر ومعاملته لأحد الملوك

« جبَلة بن الأيهم وحكايته مع الطائف بالكعبة »

يقال : إن أحد أكابر الملوك دخل في دين الإسلام أيام عُمر وهو (جبَلة ابن الأيهم) وكان رجلاً عظيماً ، فجاء إلى الحج ، وبينما هو يطوف داس على ردائه (ثوبه) أعرابي ، فلطمه على وجهه ، فذهب الأعرابي إلى سيدنا عُمر

يشكو جَبَلة ، فطلبه سيدنا عمر ، وسأله عن ضرب الأعرابى فقال : إنه حق .

فحكم عليه سيدنا عمر بأنه يجب أن يأخذ الأعرابى حقه منه ويضربه بالكف كما ضربه هو ، فعجب لذلك جَبَلة ، وقال له : أنا ملك كبير ، وهو سوقة ، فلا يصح أن يضربنى كما ضربته ، وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟

فقال له سيدنا عمر : إن الإسلام ساوى بينكما ، وكل المسلمين ، لا فرق فيهم بين الملك والرعية فهم فيه سواء .

فقال : أجّلنى إلى غد . فلما أصبح ، مضى إلى قيصر ملك الروم وارتد ثم ندم ، وقال أبياتاً منها :

« تَنَصَّرَتِ الأَشْرَافُ مِن عَارِ لَطْمَةٍ   وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَر »
« تَكَنَّفَنى فيها لَجَاج ونخـوة   وبعت بها العينَ الصحيحةَ بالعور »

عدل عمر بن الخطاب ونزاهته

ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه (قيس بن سلمة) حرب الأكراد فظفر بهم ، ولما فرق الغنائم رأى حلية فاسترضى الجند فى إرسالها إلى عمر فرضوا . فبعث بها مع رجل من أصحابه .

فقدم الرجل على عمر فرآه يغدى فقراء المسلمين ، وهو متكىء على عصاه فتقدم إليه فأجلسه ، ولما انتهى الأكل سار عمر إلى داره واتبعه الرجل ودخل معه ، فأجلسه على وسادة ، وجلس هو على أخرى وقال : يا أم كلثوم غداءنا . فأخرجت إليه خبزة بزيت ومعها ملح ، ثم أكل هو والرجل ، فما كان أحسن أكلاً منه !

ثم قال الرجل : حاجتى يا أمير المؤمنين ؛ أنا رسول قيس بن سلمة .

فقال له : مرحباً ، وسأله عن المهاجرين . فقال : هم على ما تحب فى كل شىء ثم أخبره بأمر الحِليه فوثب عمر ووضع يده فى خاصرته وقال : لا أشبع الله إذاً بطن عمر ، ردَّ ما جئت به . أما والله لئن تفرق المسلمون فى شاتيتهم قبل أن تقسم هذه فيهم ، لأفعلن بك و بصاحبك الفاقرة .

فخرج الرجل حتى أدرك قيساً وأخبره بما كان ، ففرق الحلية على أهلها

فانظر إلى عدل عمر وزهده ، فكيف لا تكون القلوب بيده يصرفها كيف شاء وأنّى أحبّ ؟ (ثمار الإنشاء)

عمر بن الخطاب والعجوز

لما رجع عمر من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليعرف أخبار رعيته ؟ فمر بعجوز فى خباء لها ، فقال : ما فعل عمر ؟ قالت قد أقبل من الشام سالمًا .

فقال : ما تقولين فيه ؟ فقالت : يا هذا ، لا جزاه الله عنى خيراً .

قال : ولِمَ ؟

قالت : لأنه ما أنا لنى من عطائه منذ ولى أمر المسلمين ديناراً ولا درهمًا .

فقال : وما يدرى عمر بحالك وأنتِ فى هذا الموضع ؟

فقالت : سبحان الله ! والله ما ظننت أحداً يولى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها .

فبكى عمر وقال : واعمراه ! كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر، ثم

قال لها : يا أمة الله بكم تبيعين ظلامتك من عمر ؟ فإنى أرحمه من النار .

فقالت : لا تهزأ بنا ، يرحمك الله .

فقال عمر : لست أهزأ بك ، ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً .

فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت : واسوءتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه !

فقال لها عمر : لا بأس عليك ، يرحمك الله .

ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد ، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى الخلافة إلى يوم كذا بخمسة وعشرين ديناراً ، فما تدعى عليه عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر برىء منه .

شهد على ذلك على وابن مسعود .

ثم دفعها إلى ولده وقال له : إذا أنا مت فاجعلها فى كفنى ألقى بها ربى .

عدل عمر بن الخطاب

ومساواته بين الناس

روى أنس قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد إذ جاء مصرى .

فقال : ياأمير : المؤمنين هذا مقام العائذ بك .

فقال عمر : لقد عذت بمجير ، فما شأنك ؟

فقال : سابقت بفرسى ابناً لعمرو بن العاص ، وهو يومئذ على مصر فجعل يقنعنى بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن ، فانفلت منه ، فهذا الحين أتيتك .

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص :

إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وابنك فلان .

فأقام حتى قدم عمرو ، وشهد موسم الحج ، فلما قضى عمر الحج ، وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه .

قام المصرى فرمى عمر إليه بالدرة .

قال أنس : فلقد ضربه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع ، حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين .

قال : ياأمير المؤمنين ، قد استوفيت .

قال : ضعها على صلع عمرو .

فقال : ياأمير المؤمنين لقد ضربت الذى ضربنى .

قال : أما والله لو فعلت مامنعك أحد حتى تكون أنت تنزع .

ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال : (ياعمرو متى تعبدتم الناس وقدولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟) فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول : إنى لم أشعر بهذا .

(المستطرف)

عدل عمر أيضاً

قيل : إن عُمر بن الخطاب جاءته برودمن اليمن ففرقها على المسلمين فحصل نصيب كل رجل من المسلمين برداً واحداً ، ثم حصل نصيب عُمر كنصيب واحد من المسلمين ، ففصله عمر ثم لبسه وصعد المنبر فأمر الناس بالجهاد ، فقام إليه رجل من المسلمين وقال : لا سمعاً ولا طاعةً .

قال: لِمَ ذلك ؟

قال : لأنك استأثرت علينا .

قال عُمر : بأى شيء استأثرت ؟

قال : إن الأبراد اليمنية لما فرقتها حصل لكل واحد من المسلمين برد منها وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد لا يكفيك ثوباً ، ونراك فصّلته قميصاً تاماً وأنت رجل طويل ، فلو لم تكن قد أخذتَ أكثر منه لما جاءك منه قميص .

فالتفت عمر إلى ابنه عبد الله وقال : ياعبدالله أجبه عن كلامه .

فقام عبد الله بن عُمر وقال : إن أمير المؤمنين لما أراد تفصيل برده لم يكفه، فناولته من بردى ما تممه به .

فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة ، وهكذ يكون عدل الملوك .

(عن الآداب السلطانية)

على بن أبى طالب

القاضى العادل

حكى أن النبى ﷺ كان جالساً مع جماعة من الصحابة فجاءه خصمان فقال أحدهما : إن لى حماراً ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حمارى .

فبدأ رجل من الحاضرين فقال : لا ضمان على البهائم .

فقال ﷺ : اقض بينهما ياعلىّ .

فقـال علىّ لهما : أكانا مرسلين ، أم مشدودين ؟ أو أحدهما مشدود والآخر مرسل ؟

فقال : كان الحمار مشدودا ، والبقرة مرسلة ، وصاحبها معها .

فقال على : صاحب البقرة ضامن الحمار .

فأقر النبى ﷺ حكمه ، وأمضى قضاءه ، وقدمه على بقية الحاضرين من الصحابة ، وكانوا أكبر منه سنًّا ، كرّم الله وجهه .

مثال آخر من عدل سيدنا على بن أبى طالب

عن أبى مطر البصرى ، أنه شهد عليًّا أتى أصحاب التمر ، وجارية تبكى عند التمّار فقال : ما شأنك ؟ قالت باعنى تمراً بدرهم ، فرده مولاى فأبى أن يقبله ، فقال على : ياصاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهما ، فإنها خادم وليس لها أمر . فدفع صاحب التمر عليًّا .

فقال المسلمون : أتدرى مَن دفعت؟ قال : لا . قالوا : أمير المؤمنين فصب تمرها ، وأعطاها درهماً ، وقال : أحب أن ترضى عنى .

فقال : ما أرضى عنك إلاّ إذا أوفيت الناس حقوقهم .

(محاسن الآثار)

من هذه الحكاية نعلم مقدار تواضع سيدنا على ، وعدم ضربه الرجل ، وكيف نصح له ومنعه من ظلم الناس ، وأمره برد الحقوق إلى أصحابها ؟

هارون الرشيد والبلخى

أحب أمير المؤمنين هارون الرشيد أن يرى شقيقاً البلخى رضى الله عنه ، فلما دخل عليه قال له أنت شقيق الزاهد ؟

قال : أنا شقيق ، ولست بزاهد .

فقال : أوصنى .

قال : عليك بالعدل ، فإنه أول ما يطالبك الله به ، واعلم ياأمير المؤمنين أن الله تعالى أجلسك فى موضع أبى بكر الصديق وهو يطلب منك الصدق مثل صدقه .

وأعطاك موضع عمر بن الخطاب (الفاروق) وهو يطلب منك أن تفرق بين الحق والباطل .

وأحلّك محل عثمان بن عفان ، وهو يطلب منك مثل قيامه فى الرعية وأقعدك موضع علىّ بن أبى طالب ، وهو يطلب منك العدل والعمل به فانظر لنفسك ياأمير المؤمنين .

قال الرشيد : فانتفعت بكلمه ، ورسخ فى نفسى منه مانفعنى الله به .

(عن العقد الفريد)

عدل المأمون

وموقفه المشرف له وللقضاء فى أيامه

يحكى أن رجلا دخل على المأمون وفى يده رقعةٌ فيهــــا مظلمة من أمير المؤمنين .

فقال : أمظلمة منى ؟ فقال الرجل : أفأخاطب يا أمير المؤمنين سواك ؟ قال : وما هى ظلامتك ؟ قال إن سعيداً وكيلك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال:فإذا اشترى سعيد منك الجواهر تشكو الظلامة منى ! قال: نعم ، إذ كانت الوكالة قد صحت له منك . قال : لعلّ سعيداً اشترى منك الجواهر ، وحمل إليك المال ، أو اشتراه لنفسه وعليه ، فلا يلزمنى لك حق ، ولا أعرف لك ظلامة .

فقال له (بعد كلام طويل) : إن فى وصية عمر بن الخطّاب لقضاتكم : « البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر » .

قال المأمون : إنك قدعدمت البيِّنة ، فما يجب لك إلّا حَلف اليمين،ولئن حلفتها لأنا صادق ، إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمنى .

قال : فإذاً أدعوك إلى القاضى الذى نصبته لرعيتك .

قال : نعم ، ياغلام علىَّ بيحيىٰ بن أكثم ، فإذا هو قد مثل بين يديه .

فقال له المأمون : اقض بيننا .

قال : فى حكم وقضية ؟ قال: نعم ، قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء .

قال : قد فعلت .

قال : فإنى أبدأ بالعامة أولا ليصلح المجلس للقضاء . قال : افعل ، ففتح الباب وقعد فى ناحية من الباب وأذن للعامة ، ثم دعا بالرجل المتظلم .

فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين المأمون . فنادى المنادى ، فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مُصلّى حتى وقف على يحيى وهو جالس .

فقال له : اجلس ، فطرح المصلّى ليقعد عليها .

فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلّى أخرى ، ثم نظر فى دعوى الرجل ، وطلب المأمون أن يحلفه اليمين ، فحلف .

ووثب يحيىٰ بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه .

فقال له المأمون : ماأقامك ؟

فقال : إنى كنت فى حق الله جلّ وعزّ حتى أخذته منك ، وليس الآن من حقى أن أتصدر عليك .

ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادعى الرجل من المال فقال له : خذه إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ، ثم أسمح لك فأفسد دينى ودنياى ، والله يعلم مادفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أنى تناولتك من وجه القدرة ، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

مثال آخر من عدل المأمون

شيّد في زمانه المأمون   قصراً أبانت حسنه الفنون
لم يحكه قصر من القصور   في سالف الأيام والعصور
وكان كوخ بإزاء القصر   ككلف يشين وجه البدر
لحائك من الورى فقير   مبتهج بعيشه النضير
خالٍ من الديون والمتاعب   مقتنع بقلّة المكاسب
فأمر الخليفة الوزيرا   يوماً إلى الحائك أن يسيرا
ليشترى الكوخ من المسكين   على رضا بالثمن الثمين
فرفض الحائك ذاك البيعا   ولم يوافقه عليه طوعا
وقال : إنى قانع بمالى   مغتبط بحسن هذى الحال
فمنزلى لست غنيًّا عنه   فكيف أرضى بالخروج منه؟
فيه توفى والدى و إنى   ولدت فيه فإليك عنى
مولاى لا يرضيه هدم دارى   ظلماً وهتك حرمة الجوار
فإن ظلمتنى شكوت حالى   إليه كى ينصفنى فى الحال
«فالظلم طبع فى نفوس الناس   والعدل خلق فى بنى العباس»
فغضب الوزير ثم أمرا   بهدمه حتى أزال الأثرا
وعند ما جاء الخليفة الخبر   تبدّل الصفاء منه بالكدر
وقال للوزير ماهذا الشطط   كل الذى فعلته عين الغلط
أعِدْ إلى جارى ذاك المنزلا   شيمتنا فى قومنا أن نعدلا

حتى يرى بعدى كل الناس　　أنى حفظت الملك بالقسطاس
وتسمع الذكرى بعدل البانى　　فى ملكه (والذكر عمر ثانى)
على الفتى آثاره تدل　　بقدرها يُحقر أو يُجَلّ

المرأة المحبة للعدل وأهله

والمعادية للظلم وأصحابه

حج معاوية فى بعض السنين فاستدعى يوماً امرأة من بنى كنانة كانت اشتهرت بالبغض له يقال لها (الدرامية الحجونية) فلما مثلت بين يديه قال لها : أتدرين لِمَ استحضرتك !

قالت : لا يعلم الغيب إلا الله .

فقال : أريد أن أسألك عَلاَمَ واليتِ عليًّا وعاديتنى ؟

قالت : ألا تعفينى من ذلك ؟

قال : لا .

قالت : إن كان لا بد ، فإنى أحببت عليًّا لعدله فى الرعية ، وقسمه بالسّوية وعنايته بالمساكين ، وإعظامه لأمر الدين ؛ وعاديتك على قتالك من هو أولى بالولاية منك ، وطلبك ماليس لك بحق ، وسفكك الدماء ، وجورك فى القضاء .

فقال : وهل رأيتِ عليًّا ؟

قالت : لقد كنت رأيته .

فقال : وكيف رأيته ؟

قالت : رأيته لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك .

فقال : سمعت كلامه ؟

قالت : نعم والله كان يجلو الهمّ عن القلوب كما يجلو الزيت الصدأ عن الحديد .

فقال : وهل لك من حاجة ؟

قالت : أو تفعل إن سألتك ؟

قال : نعم .

فقالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها .

فقال : ماذا تصنعين بها ؟

قالت : بألبانها أغذى الصغار ، وأستحيي الكبار .

فقال : وهل أحل عندك محل عليّ إن أعطيتك ذلك ؟

قالت : ماء ولا كصدّاء ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفتى ولا كمالك .

(وهذه أمثلة تضرب لتفضيل الثانى على الأول)

فكظم معاوية غيظه وأمر بطلبتها وأنشد :

« إذا لم يكن مثلى حليماً عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم ؟ »
« خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم »

وأردف البيتين بقوله : أما والله لو كان على لما أعطاك منها شيئاً .

فقالت : والله ولا برة واحدة من مال المسلمين .

(وتقصد بذلك التعريض بمعاوية بأنه كان يجود من مال الأمة لا من ماله الخاص به) .

ثم انصرفت وفى قلب معاوية من الحقد عليها ٠

(بحر الآداب ـ الجزء الثالث ص ٩٥)

فراسة إياس بن معاوية وعدله

استودع رجل آخر مالًا ، ثم طلبه ، فجحده ، فخاصمه إلى إياس القاضى .

فقال الطالب : إنى دفعت المال إليه .

فقال القاضى : ومَن حَضَرك ؟

قال : دفعته فى مكان كذا وكذا ، ولم يحضرنا أحد .

قال : فأى شىء فى ذلك الموضع

قال : شجرة .

قال : فانطلق إلى ذلك الموضع ، وانظر الشجرة ، فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حقك ، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت ، فتذكر إذا رأيت الشجرة .

فمضى الرجل ، وقال إياس للمطلوب : اجلس حتى يرجع خصمك فجلس . وإياس يقضى وينظر إليه ساعة .

ثم قال له ياهذا ! أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التى ذكر ؟ قال : لا .

قال : يا عدو الله إنك لخائن !

قال : أقلنى (سامحنى) أقالك الله !

فأمر مَن يحتفظ به حتى جاء الرجل .

فقال له إياس قد أقرّ الله لك خصمك بحقك فخذه . (نزهة القارئ)

هكذا يكون العدل

حكى أن الحكم بن هشام أحد خلفاء بنى أمية بالأندلس كان له عامل اغتصب جارية لرجل من بلدة بالأندلس تسمى (كورة جيان) وصيرها إلى الحكم .

فجاء الرجل إلى قاضى قرطبة (محمد بن بشير) وأثبت عنده ما جرى فى جاريته ، وأتاه ببيِّنة تشهد له على عين الجارية ، وعلى معرفة تظلمه ، فأوجب الحق حضور الجارية ، والوقوف على عينها ؛ فقام القاضى واستأذن على الحكم

فلما دخل عليه قال : إنه لايتم العدل فى العامة دون إفاضته فى الخاصة وأعلمه بخبر الجارية ، وكانت قد وقعت من نفسه موقع لطف وقال :

لابد من إبرازها أو تعزلنى عن القضاء .

قال له الحكم : أولا أدعوك إلى خير من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

قال : تبتاع الجارية من صاحبها بأوفر الأثمان وأجل القيم .

فقال له : إن الشهود شخصوا (أى حضروا) من هناك يطلبون الحق فى مظانه ، فلما وصلوا تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله .

فلما سمع مقاله أمر بإخراج الجارية من قصره وشهد الشهود على عينها وقضى بها لصاحبها ، وهكذا يكون العدل .

ذكر عدل السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

لقد كان رحمه الله عادلًا رءوفًا، رحيمًا ناصرًا للضعيف على القوى، وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام، بحضرة الفقهاء والقضاة والعلماء، و يفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير.

وكان يفعل ذلك سفراً وحضرًا. على أنه كان فى جميع زمانه قابلًا لجميع ما يعرض عليه من القضايا فى كل يوم، و يفتح باب العدل ولم يردّ قاصدًا للحوادث والحكومات.

وكان يجلس مع الكاتب ساعةً، إما فى الليل، أو فى النهار، و يوقع على كل قضية بما يجريه الله على قلبه، ولم يردَّ قاصداً أبداً، ولا منتحلاً، ولا طالبَ حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر، والمواظبة على التلاوة، رحمة الله عليه.

ولقد كان رءوفًا بالرعية، ناصرا للدين، مواظبا على تلاوة القرآن العزيز، عالمًا بما فيه، عاملًا به، لا يعدوه أبدًا، رحمة الله عليه.

وما استغاث به أحد إلّا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، واعتنى بقصته.

(النوادر السلطانية)

مثال آخر
من عدل السلطان صلاح الدين الأيوبى

مما يدل على عدل السلطان صلاح الدين الأيوبى قضية جرت له مع تاجر يُدعى (عمر الخلاطى) .

وذلك ، يقول القاضى بهاء الدين فى كتابه (سيرة صلاح الدين) : إنى كنت يوماً فى مجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل علىّ شيخ حسن ، تاجر معروف يسمى (عمر الخلاطى) معه كتاب حكمى يسأل فتحه فسألته : مَن خَصمك ؟

فقال : خَصمى السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك لاتحابى .

قلت : وفى أى قضية هو خَصمك ؟

فقال : إن (سنقر الخلاطى) كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى إلى أن مات، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها ، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها .

فقلت له : ياشيخ ، وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟

فقال : الحقوق لاتبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات .

فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية (سنقر الخلاطى) وأنه قد اشتراه من فلان التاجر فى اليوم الفلانى من شهر

كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتم الشرط إلى آخره ، فتعجب من هذه القضية وقلت للرجل : لاينبغى سماع هذا بلا وجود الخصم ، وأنا أعرّفه وأعرفك ماعنده ، فرضى الرجل بذلك واندفع .

فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرّفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيما وقال : كنت نظرت فى الكتاب .

فقلت : نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون .

فقال مبارك : نحن نحضر الرجل ونحاكمه ، ونعمل فى القضية مايقتضيه الشرع .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى فى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولابد أن نسمع دعواه .

فقال : أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا .

ففعلت ذلك ؛ ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت إلى جانبه ، ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها؟

فحرر الرجل الدعوى على معنى ماشرح أولا .

فأجابه السلطان : إن (سنقر) هذا كان مملوكى ، ولم يزل فى ملكى حتى أعتقه وخلف ماخلفه لورثته .

فقال الرجل : لى بينة تشهد بما ادعيته ، ثم سأل فتح كتابه ففتحه ، فوجدته كما شرحه .

فلما سمع السلطان التاريخ قال : عندى من يشهد أن (سنقر) هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر ، وإنى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقه.

ثم أحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القضية كما ذكرها ، والتاريخ كما أعاده ، فأبلس (تحيّر) الرجل .

فقلت له : يامولاى ، هذا الرجل مافعل ذلك إلاّ طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدى المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائباً للقضية .

فقال : هذا باب آخر ، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عن مقدارها

فانظر إلى مافى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة ، والتواضع والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ، رحمه الله رحمةً واسعةً . (النوادر السلطانية)

صفات الملك العادل

تربع فى عرش أجداده مَليك تربّى كريم الخلال
وكان المَليك الذى قبله كثير الكلام قليل الفعال
تحيط به زمرة المفسدين فيلبث ما بين قيل وقال
وكاد يزول به مُلكه ومُلك الضعيف سريع الزوال
فلما تولى المَليك الذى تلاه وأدرك سرّ الليال

أقام يدير شؤون البـلاد ... و بالعدل يبلغ أوج المعال
وقرّب أهل النهى الراشدين ... وأقصى المرائين أهل الضلال
وولّى المناصب أربابهـا ... وأعطى القسىّ رماة النبال
فأصبح مَلْكاً رفيع الذرا ... عزيز المقام عديم المثال
وأضحى الرجال على عهده ... كبار النفوس كرام الخصال
كذلك يرقى شؤون البلاد ... وأهل البلاد مُلوك الكمال
فشرط الفلاحة غرس النبات ... وشرط الرياسة غرس الرجال

عدل الملوك

يحكى أنه فى القرن الثالث عشر للميلاد وقع خلاف بين (شارل كونت أنجو) أخى (لويس) ملك فرنسا و بين رجل من أعوانه على أراض ادّعاها كل لنفسه ، فترافعا إلى قاضى (أنجو) فحكم القاضى لأخى الملك ، فاستأنف الخصم دعواه إلى مجلس الملك فحنق عليه أخو الملك وأودعه السجن .

فلما علم الملك بذلك أحضر أخاه وقال له : أتزعم أنك فوق القانون ، وحكم الشريعة لأنك أخى ؟ أطلق الرجل من سجنه ، ودعه يأتى ، ويرفع دعواه أمام قضاة الملك حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، فأطلقه وطلب الرجل وكيلاً يحامى عن حقوقه فى المحكمة فلم يجد لأن المحامين امتنعوا محاباةً لأخى الملك .

فعيّن له الملك محامين من قِبَله ، ورفعت الدعوى إلى محكمة الاستئناف فنظر فيها القضاة ، أهل الاستقامة والإنصاف ، وحكموا للرجل ، فاسترد

أملاكه ، وحملوا أخا الملك نفقات الدعوى كلها .

عدل يزد جرد ملك الفرس

قيل ليزدجرد ملك الفرس : ما الذى أوجب لملوككم نظام الأمور ودوام السرور ؟

فقال مامعناه : إنَّا استعملنا العدل والإنصاف فعمرت بلادنا ، واستعملنا تأديب الخائن وتقريب المشفق الأمين فيما ملكنا ، واستعملنا الإحسان إلى رعايانا فملكنا قلوبهم ، واستعملنا الصدق فدانت لنا ملوك الطوائف ، واستعملنا مكارم الأخلاق فاكتسبنا حسن السُّمعة و بقاء الذكر ، ولم يختلف علينا من نكره خلافه لنا فاستقامت لذلك أمورنا وتمّ سرورنا . (العقد الفريد)

عدل الملك كسرى

روى : أن الملك كسرى ولى عاملاً على البلاد ، فأرسل له العامل زيادةً على الخراج المعتاد فى كل سنة ، فلما بلغ ذلك كسرى أمر برد الزيادة إلى أصحابها وأمر بصلب ذلك العامل .

وقال : كل مَلك أخذ من رعيته شيئاً ظلماً لا يفلح أبداً ، وترتفع البركة من أرضه ، ويكون وبالاً عليه .

ثم قال: المُلْك بالمَلك والمَلك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بعمارة البلاد ، وعمارة البلاد بالعدل فى الرعية ، فلزمت العدل واعتمدت عليه فأمنت الرعايا

وعمرت البلاد ، وهذا ينطبق على القول المأثور :

لا مُلك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمـال ، ولا مال إلا بالرعيـة ، ولا رعية إلا بالعدل .

عدالة أنوشروان فى بناية الإيوان

حكى أن (قيصر) ملك الروم أرسل رسولاً إلى ملك فارس (أنوشروان) صاحب الإيوان ، فلما وصل ورأى عظمـة الإيوان وطرافته ، وعظمـة مجلس كسرى على كرسيه والملوك فى خدمته ، ميّز الإيوان فرأى فى بعض جوانبه اعوجاجاً ، فسأل الترجمان عن ذلك فقال له : إن هناك بيتاً لعجوز كرهت بيعه عند عمارة الإيوان ، ولم ير الملك إكراههـا على البيع ، فأبقى بيتهـا فى جانب الإيوان فذلك مارأيت وسألت .

فقـال الرومى : وحق رأسه إن هذا الاعوجاج أحسن من الاستقامة ، وإن مافعله ملك الزمان لم يؤرخ فيما مضى لملك ، ولا يؤرخ فيما بقى لملك. فأعجب كسرى كلامه ، وردّه مسروراً مجبوراً . (للابشيهى)

عدل كسرى أنوشروان (ملك العجم)

حكى : أن رجلًا اشترى داراً من آخر ، فوجد المشترى فيها كنزاً فمضى إلى البائع وأخبره به فقال البائع : إنما بعتك داراً لا أعرف فيها كنزاً وإن كان فيها كنز فهو لك .

فقال المشترى : لا بد أن تأخذه ، فإنه ليس داخلًا فيما اشتريت ، فطال

الجدال بينهما ، فتحا كما إلى كسرى . فلما وقفا بين يديه وذكرا أمر الكنز أطرق مليًّا ثم قال لهما : هل لكما أولاد ؟ فقال أحدهما : لى إبن ، وقال الآخر : لى بنت ، فقال كسرى لهما : أحب أن يكون بينكما قرابةٌ وصِلةٌ ؛ وأن تزوجا الابن بالبنت ، وأنفقا ذلك الكنز فى مصالحهما ، فرضيا بذلك وانصرفا مسرورين شاكرين .

عدل أبى يوسف والمعتضد بالله

قدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبى يوسف بن يعقوب فى حكم فارتفع صوت الخادم على خصمه فى المجلس ، فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل ، فقال أبو يوسف : قم ياغلام ، أتؤمر أن تقف بمساواة خَصمك فى المجلس فتمتنع ؟ ائتنى (بعمرو بن أبى عمر) النخاس فإنه إن قدم علىّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين . ثم إن الحاجب أخذ بيد الخادم حتى أوقفه بمساواة خصمه .

فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال :

لو باعك لأجزت البيع ، ولم أردك إلى ملكى ، فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم ؛ فإن ذلك عمود السلطان ، وقوام الأديان .

عدل الإسكندر

عزل الإسكندر غلاماً من عماله عن عمل كبير خطير ، وولّاه أمر عمل

حقير ، فأتى ذلك الرجل بعض الأيام إلى الدركات فقال له الإسكندر : كيف تجد عملك ؟

فقال : أطال الله بقاء الملك ، (الرجال لا تشرف بالأعمال) ؛ (بل الأعمال تشرف بالرجال) وذلك بحسن السيرة والإنصاف ، و إقامة العدل وتجنب الإسراف .

فاستحسن الإسكندر مقاله ، وأعاده إلى أعماله .

عدل السلطان سليمان الثانى

كان السلطان سليمان الثانى كريم النفس ، عالى الهمة ، محباً للخير ، ينصر المظلومين ، ويغيث الملهوفين ، ويؤمن الخائفين .

فمن مآثره : أنه لما زحف إلى فتح عاصمة الصرب سنة ٩٣٧ ﻫ نزل ليلاً فى نواحى قرية من بلاد العدو فتعدّى جماعة من جنوده على بيت عجوز وهى نائمة ، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم .

فلما أصبحت المرأة ورأت ما حلّ ببيتها ، لم تشك فى أن الجنود هم المختلسون لأمتعتها دون غيرهم ؛ فذهبت إلى السلطان سليمان وقد أشرف على الرحيل ، فألقت بنفسها بين يدى حصانه ، وبكت وشكت أمرها ، فرقّ لحالها ، وقال لها بلطف :

عجباً لك يا خالة ! أقد بلغ بكِ النوم إلى حد لا تشعرين معه بفتح بابك وأخذ أمتعتك ؟ فقالت له :

نعم يامولاى ، فإنى كنت مطمئنة بجوارك ، لعلمى ألّا يستباح ذمام أنت حافظه ، ولا تضام امرأة ضعيفة فى حماك ، وتحت لوائك الظافر .

فوقع كلامها منه أحسن موقع ، فترجل فى الحال وأمر بإحضار ما سرق منها ، ولم يزل واقفاً حتى جئ به جميعه ، فأسلمه إليها ثم انطلق .

(بحر الآداب)

العدل لا يعرف المحاباة

كان الأمير هنرى بن هنرى الرابع ملك الانجليز فى الزمان الماضى شديد الانهماك فى الملاهى والعربدة ، وله ندمان على شاكلته لا يفارقهم ولا يفارقونه وقد أقلقوا راحة الناس بهياجهم ، حتى قبض على واحد منهم وسيق إلى المحاكمة .

ولما نظر القاضى الدعوى حكم على الجانى بالحبس ، فقام الأمير غاضباً وسط المجلس ونهر القاضى قائلا :

أيها الشيخ ، أهكذا تعامل رفيق الأمير ولىّ عهد المملكة ؟

فلم يلتفت إليه القاضى ؛ بل أمر بإيداع الجانى السجن ، فاشتدّ غيظ الأمير ، وهمّ على القاضى ولطمه على وجهه .

فأمر القاضى بحبس الأمير نفسه ، وقال : إنى لم أفعل هذا انتقاماً لما لحقنى من الأذى ، ولكن صوناً للقضاء من الإهانة .

ولما سمع الملك بالخبر قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من يقيم العدل حتى على أكبر الكبراء .

وبعد سنين تولى هذا الأمير على العرش بعد موت أبيه ، فقصد الناس أفواجاً يهنئونه ، وفى جملتهم ذلك القاضى الذى ظن أنه لابد معزول من منصبه .

فلما دخل ، قام الملك إليه وصافحه وقال له : أيها القاضى الجليل ، لقد

وعظتنى أحسن عظة بما عاملتنى به أيام طيشى ، وما دام فى أمتى رجال مثلك فهى فى أعلى عليين . (القراءة الرشيدة)

الحاكم العادل نصير الحق

تنازع إبراهيم بن المهدى وبختيشوع الطبيب فى مجلس الحكم فى عقار .

فأغلظ له إبراهيم القول ، وكان القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، فغضب وقال له : يا إبراهيم إذا نازعت فى مجلس الحكم امرءا فلا ترفع عليه صوتاً ، ولا تشر بيدك ، وليكن قصدك أمماً ، وطريقك نهجاً ، وريحك وكلامك معتدلا ، ووفِّ مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم ، والاستكانة والتوجه إلى الحق؛ فإن هذا أشكل بك ، وأجمل بمذهبك فى محتدك ، وعظيم خطرك ، ولا تعجلن فربَّ عجلة تهب ريثاً ، والله يعصمك من الزلل ، وخطل القوم والعمل « وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

فقال إبراهيم : أمرت أصلحك الله بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست عائداً لما يثلم قدرى عندك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى عن مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرّ بذنبه ، بائح بجرمه ؛ لأن الغضب لا يزال يستفزنى بمواده فيردنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة عندك وعندنا فيك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد جعلت هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك يكون وافياً بأرش الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ؛ وبالله سبحانه وتعالى التوفيق . (ثمار الإنشاء)

حب العـــدل

(الملك الصينى وجاساؤه)

فقد أحد ملوك الصين حاسة السمع ، فبكى بكاء شديداً ، فحثه جلساؤه على الصبر ، وقالوا له : علامَ تبكي وقد عِهدناك لا تكترث بالنوائب ، ولا توهنك المصائبَ ؟

فقال : لست أبكي للبلوى التى نزلت ، ولكنى أتألم لمظلوم يئن فلا أسمع أنينه ، ومع هذا فلئن ذهب سمعى ، فما ذهب بصرى ، نادوا فى الناس ، ألَّا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم ، فقبلوا وحكم بينهم بالعدل كما كان يحكم قبل أن يفقد سمعه ، فعاش محبوباً ، ومات محبوبًا ، وذلك جزاء العادلين .

(ثمار الإنشاء)

عدل نور الدين

إن فى سيرة نور الدين ، وكثرة تحريه للعدل لعظةً ، فقد كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلّا من مِلك كان له ، قد اشتراه من ماله ، ولقد شكت إليه زوجته من الضيقة ، فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له يحصل منها فى السنة نحو عشرين ديناراً .

فلما استقلتها قال : ليس لى إلّا هذا ، وجميع ما فى يدى أنا خازن عليه للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك .

عدل المنصور

اغتصب أحد الولاة ضيعة رجل ، فأتى إلى المنصور قائلاً له : أصلحك الله ياأمير المؤمنين ، أأذكر لك حاجتى ، أم أضرب لك قبلها مثلاً ؟ قال : اضرب المثل .

فقال : إن الطفل إذا نابه أمر يكرهه ، فإنما يفزع إلى أمه ، إذ لا يعرف غيرها ، ولا يأمن إلا بها ، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه ، فإذا زاد عقله ، شكا إلى السلطان ، لعلمه أنه أقوى من سواه ، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله تعالى ، لعلمه أنه أقوى من السلطان .

وقد نزلت بى نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك إلا الله عزّ وجلّ فإن أنصفتنى وإلا رفعت أمرها إلى الله عزّ وجلّ فى الموسم ، فإنى متوجه إلى بيته وحرمه .

فقال : بل ننصفك ، وكتب إلى واليه برد ضيعته إليه .

عدل المنصور أيضاً

جاء عُمارة بن حمزة إلى الملك المنصور ، فأجلسه عنده وكان ذلك فى يوم نظره فى المظالم ، فقام رجل على قدميه ونادى بأعلى صوته : ياأمير المؤمنين ، أنا مظلوم .

فقال له : ومَن ظلمك ؟

فقال عُمارة : بن حمزة هذا أخذ ضياعى وعقارى .

فأمر المنصور أن يقوم من مجلسه ويساوى خصمه .

فقال عُمارة : يا أمير المؤمنين ، إن كانت الضياع له ، فلا أعارضه فيها ، وإن كانت لى فقد وهبتها ،ولا أقوم من مجلس أكرمنى به أمير المؤمنين لأجل ضياع وعقار .

الوزير الناصح الأمين

والملك المحب للعدل

مات وزير بعد أن خدم وطنه بالإخلاص تاركاً حسن الذكرى .

فدعا الملك خمسة من الأعيان ليستوزر منهم واحداً ، فحضروا .

فقال الملك :

إنى أريد وزيراً فمن يقع عليه اختيارى أعطيته (ماسةً) .

قال هذا ، ودخل غرفة ذات بابين ، وطلب كلاً منهم منفرداً .

وبعد المحادثة يخرج الرجل بدون أن يجتمع برفقائه .

فقال للأول : أتمنى أن تكون أنت الوزير الذى أبحث عنه .

فأجابه : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً .

فقال له : اقسِم بالله أن تقول الحق ، ولا تنطق إلا بالصدق .

فأقسم بالله ورسله وملائكته وكتبه أن يقول الحق .

ثم قال الملك : أنت تعرف قوتى وبطشى ، وكيف تهابنى الناس ، فإذا أردت أن تكون الوزير فلا تخالف لى أمراً ، فإذا رغبت زيادة الضرائب لنصرفها

على لذاتنا فما عليك إلا الطاعة والامتثال .

فأجابه : إذا تفضل مولاى ومنحنى الوزارة أكون أطوع له من بنانه وأجعل الرعيــة خدماً للملك ، وما على الخدم غير الخضوع والخنوع ، ومن يتذمر فجزاؤه الموت ، والقانون بيد الملك يعذب من يشاء ، ويعفو عمن يشاء .

فأعطاه الملك (ماسةً) وأمره بالانصراف ، فذهب مهرولاً إلى أهله ليبشرهم بنواله هــذا المنصب الرفيع ، وصار يشيد من الأمانى أعظم دور ، ويرفع على قوائمها شاهق القصور ، وعزم على الانتقام من أعدائه ، ومنح الوظائف إلى أقربائه وأحبائه ، وكان يقول فى نفسه :

أنا لا يهمنى شىء سوى الحصول على الوزارة ، وما دمت أنا وأسرتى عائشين مبسوطين فعلى الدنيا السلام (و بعدى الطوفان) .

ثم طلب الملك : الثانى ، فالثالث ، فالرابع ، وصار يسأل كلا منهم على حدة ، فــكان نفس السؤال ، ونفس الجواب .

فلما رأى الملك ذلك أسف أسفاً عظيما ، وقال : تعساً لهؤلاء الخونة وصار يترحم على وزيره ، ثم سأل الخامس ، فأجابه :

إن الله ولاك الحــكم بين العباد لتحكم بالعدل ، ولتضرب على أيدى القوى الظالم يسلب حق الضعيف ، فعليك بالعدل .

« فالعدل أساس الملك »

واعلم أن الله جعل الملك العادل ، كالأب الرحيم بأولاده .

أيرضى الوالد الرحيم أن يأكل و يشرب أطيب المأكولات والمشروبات

ويلبس الملابس الفاخرة ، وأولاده يقنعون من دهرهم بالخسيس من المطعم ، والمشرب ،والملبس ؟ أيرضى أن ينام على فرش وثير ، وأبناؤه يتوسدون الثرى ، فلا تكن أيها الملك فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرّق ماله ؛ وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل .

ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقر أمره إلا قليلًا .

واعلم أن الملك الذى يسلب أموال رعيته ، ويثقل كاهلها بالضرائب،مثله مثل من يأخذ الطين من أصول حيطان بيته فيطين به سطوحه فيوشك أن يقع عليه البيت .

فإذا أخذتنى لك ناصحاً ، فعليك بتقوىٰ الله فى عباده ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ؛ ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله .

« غداً توفّىٰ النفوس ما كسبت   ويحصد الزارعون ما زرعوا »
« إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم   وإن أساءوا فبئس ما صنعوا »

فأخفى الملك سروره ، وقال له مغضباً :

لِمَ هذا الكلام القارص ؟ ومن أين لك حق مخاطبتى بهذه اللهجة الشديدة ؟وأنت ماذا يهمك عاشت الرعية أوهلكت ،مادمت أنت حائزاً على رضائى متمتعاً بلذيذ الخيرات ، حاصلًا على أسمى الرتب والدرجات ؟

اعلم أن للملك التصرف المطلق فى رعيته ، يفعل بها كما يحب ويهوى ، ومفروض عليها طاعته ، كما لراعى الغنم الحق فى ذبح وسلخ قطيعه .

فأجابه : هب يامولاى أنى قبلت هذا المنصب السامى ، وجاريتك على ابتزاز أموال الرعية ،وامتصصنا دماءها، وظلمناها ظلماً بيناً،ولم نحسب للآخرة حسابًا ، ألا نخشى شر يوم تثور فيه الرعية فتحاسبنا حسابًا عسيرًا ؟ وربما قتلتنا شر قتلة ، فإن كثرةالضغط تولد الانفجار، كما قال(لويس السادس عشر) ويل للملك مقتته رعيته !

وكما قال الشاعر :

« إن ملكت الرقاب فابغ رضاها فلهـا سورة وفيها مضاء »
« يسكن الوحش للوثوب من الأسـر فكيف الخلائق العقلاء ؟ »

تقول مولاى : ماذا يهمنى عاشت الرعية أو هلكت ؟

ألستُ واحدًا منها ، يسرنى ما يسرها ، ويؤلمنى ما يؤلمها ؟

وماذا يكون الحال لو كنت أنت من أفراد الرعية ، والحاكم يثقل كاهلك بالضرائب ويسلب مالك ؟

أتحب هذا الحاكم ، أم تتمنى زوال ملكه ؟ أليس نعم ؟

أما إذا كان الحاكم عادلًا محباً لرعيته ،يبذل مافى وسعه لسعادتها ورفاهيتها

فلا شك أنها تفديه بكل عزيز لديها ، وتتمنى دوام ملكه .

فكن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك ، وأعط من نفسك من هو تحتك ما تحب أن يعطيك من هو فوقك ؛ وإياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال ، وليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح .

أما أنا يا مولاى فلست ممن تطيشهم المناصب والرتب ، ولا ممن تبهرهم الأوسمة والنياشين ، ولا تخدعهم الزخارف الباطلة ، ولا يغترون بالحياة الدنيا : « وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ » وحاشا لمولاى أن يعد صراحتى فى القول ، ومجاهرتى بالحق ، قحة وقلة أدب ؛ بل ينطق اللسان ، بما فى الجنان ، وإن خير القول أصدقه ، وآفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الطبع الملَق ، ومن سوء الأخلاق النفاق .

وقد قال أرسطو الفيلسوف الشهير : ليس أصلح للناس من أولى الأمر إذا صلحوا ، ولا أفسد لهم ولأنفسهم إذا فسدوا .

فها أنا قد قلت ما أعتقده صالحاً ، ومحضتك النصيحة ، والله على ما أقول شهيد .

فقال الملك باسماً : لله درّك ، ولا فضّ فوك . فنعم أنت النصوح ، أنت أنت الوزير الأمين ، الذى أبحث عنه ، فأنت خير خلف لخير سلف .

فدوى هذا الخبر فى جميع الأنحاء ، وتناقلته الألسن .

فاجتمع الأربعة وهم فى أشد حالات الهمّ والغم ، وتوجهوا إلى أحد الصياغ وطلبوا منه فحص (الماسات) التى أعطاها لهم الملك فوجدت مزيفة كاذبة أى (بلوراً) .

فأجمعوا رأيهم ، وذهبوا إلى الملك ، فوجدوه والوزير الجديد .

فاستأذن أحدهم فى الكلام ، فأذن له فقال :

لقد امتحنا (الماسات) التى تكرمتم بها علينا ، فوجدناها (بلوراً) فأتينا نحيط جلالتكم علماً إذ ربما يكون بائعها تجاسر وغش الملك وباعها باسم (ماس حقيقى) فيعاقب على ذلك أشد العقاب .

فقال الملك : من غَشَّ يُغش ، حسبتكم أهلا لتولى الوزارة ، فوجدتكم ويا للأسف ! ممن خربت ذممهم ، لا يهمكم خراب البلاد أو عمارها ، وجدتكم مخادعين ، تميلون مع الأهواء حيث تميل ، فأعطيتكم هذه (الماسات) الكاذبة والجزاء من جنس العمل .

أما هذا الرجل ، فقد وجدته صادقاً ، يقول الحق بلا محاباة ، ولا مبالاة شيمة الرجل الحرّ النزيه ، فقلدته الوزارة .

« فلم تك تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلح إلا لها »

فلله دره من مشير ناصح ، سيكون له فى التاريخ الذكر العاطر ، والأثر الخالد ، وفقنى الله وإياه إلى ما فيه الصالح العام ، وحقاً إذا أراد الله بأمة خيراً ولى أمورها خيارها .

(من كتاب الأثر الخالد)

حكايات وأمثال فى العفو

عفو النبى ﷺ

قد أراد بعض أعداء النبى عليه الصلاة والسلام أن يفتك به ، فتصدى له وهو قائل وحده فى ظل شجرة ، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا والرجل قائم والسيف مصلت فى يده ، فقال : مَن يمنعك منى ؟ قال ﷺ : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : مَن يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ .

فتركه وعفا عنه . فرجع الرجل إلى قومه فقال لهم : جئتكم من عند خير الناس

وأى عفو أكبر من عفوه ﷺ عن قريش ، وقد أظهره الله عليهم وحكَّمه فيهم يوم الفتح — فتح مكة — بعد أن قاسى منهم ما قاسى من الشدائد وهم لا يشكّون فى أنه يبيدهم و يستأصل شأفتهم (أصلهم) فما زاد على أن قال لهم ﷺ : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

العفو أفضل من الحق

وقعت دماء بين حَيّين من قريش ، فأقبل أبو سفيان ، فما بقى أحد واضعاً رأسه إلّا رفعه .

فقال : يا معشر قريش ، هل لكم فى الحق ؛ أو فيما هو أفضل من الحق ؟

قالوا : وأى شيء أفضل من الحق ؟

قال : نعم ، العفو .

فتبادر القوم واصطلحوا . « للشريشى »

فصاحة اللسان ، تستوجب العفو والغفران

بنت حاتم الطائى

حكى أن النبي ﷺ لما أتى بسبايا طيئ وجد من دونهم جارية جميلة فصيحة اللسان فقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلى سبيلى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويفشى السلام ، ولا يرد طالب حاجة قط ؛ أنا بنت (حاتم الطائى).

فقال ﷺ : هذه صفات المؤمنين ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

وقد عفا عنها النبي ﷺ وأنقذها من الرق إكراماً لأبيها .

عفو القادر

وقف غلام يصب الماء على يدى جعفر الصادق رضى الله عنه ، فوقع الإبريق من الغلام فى الطست ، فطار الرشاش فى وجهه ، فنظر إليه جعفر نظر مغضب .

فقال الغلام : يا مولاى ، إن الله يقول : « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » .

قال : كظمت غيظى

قال : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » .

قال : عفوت عنك .

قال : « وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

قال : اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى .

العفو الحقيقى

قبض (معن بن زائدة) على عدد من الأسرى ، وعرضهم على السيف فالتفت إليه بعضهم ، وقال له :

أصلح الله الأمير ، لا تجمع علينا بين الجوع والعطش ثم القتل . فو الله إن كرم الأمير يبعد عن ذلك .

فأمر لهم حينئذ بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ، فلما فرغوا من أكلهم قالوا له :

أيها الأمير، أطال الله بقاءك ، إننا قد كنا أسراك ؛ والآن صرنا ضيوفك فانظر كيف تصنع بضيوفك ؟

فعند ذلك ، قال لهم مَعن : قد عفوت عنكم .

فقال له أحدهم : والله يأيها الأمير ، إن عفوك عندنا أشرف من يوم ظفرك بنا ، فأمر لكل منهم بكسوة ومال .

محمد بن عمران والمأمون

لما بنى محمد بن عمران قصره إزاء قصر المأمون قيل له :

يا أمير المؤمنين باراك ، و باهاك .

فدعاه ، وقال له : لِم بنيت هذا القصر حذاء قصرى ؟

قال : يا أمير المؤمنين،أحببت أن ترى نعمتك علىّ ، فجعلته نصب عينك فاستحسن المأمون جوابه ، وعفا عنه .

المنصور وأحد ولد الأشتر

حكى : أن المنصور أتى برجل من ولد الأشتر النخعى ، ذكر عنه الميل إلى بنى على بن أبى طالب والتعصب لهم ، فأمر بإحضاره .

فلما مثلَ بين يديه قال : ياأمير المؤمنين ، ذنبى أعظم من نقمتك ، وعفوك أعظم من ذنبى ، ثم قال :

« فهبنى مسيئاً كالذى قلت ظالماً　　فعفواً جميلاً كى يكون لك الفضل »
« فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما　　أتيت به أهلاً فأنت له أهـــل »

فعفا عنــه .

عفو القادر

غضب الرشيد على حميد الطوسى ، ودعا له بالسيف فبكى .

فقال له الرشيد : مايبكيك ياحميد ؟

فقال له والله ياأمير المؤمنين ، ماأفزع من الموت ؛ لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفاً على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط على .

فعفا عنه الرشيد لحسن جوابه .

العفو عند الاقتدار ، من شيمة الأحرار

« الرشيد والخارجى »

ظفر الرشيد برجل من الخارجين عليه ، فقال له :

ماتريد أن أصنع بك ؟

قال : الذى تريد أن يصنع بك المولى ، إذا وقفت بين يديه ، ولا أجد أذل ممن بين يديك .

فأطرق الرشيد مدةً ، ثم قال : اذهب حيث شئت .

فأغراه جلساؤه ، وحذروه منه ، فأمر بردِّه .

فلما حضر قال : يا إمام الأمة لا تطعهم فىّ ، فلو أطاع الله فيك خلقه ، ما استخلفك عليهم .

فعجب من قوله ، وخلّى سبيله ، جزاء حجته القوية ، فمضى آمناً مسروراً .

العفو من شيم الكرام

كان (تيطى) من كبار سلاطين الرومان ، وأشهر كرمائهم .

قيل : إن اثنين من رجال دولته تعصبا عليه ، وجعلا يكيدان سرًّا

لاغتصاب الملك منه ، فعلم بأمرهما ، وكان يحبهما حباً عظيماً : فأحضرهما إليه ، وهما لا يدريان بما أضمر .

فلما مثلا بين يديه ، تلطف لهما فى الكلام وقال :

أقرّا ياصاحبيّ لصديقكما (تيطى) بما أنتما فاعلان ، فإن الامبراطور لايعلم بشىء من ذلك،فعلما أن أمرهماقد انكشف ، ولم يجدا مناصاً من الإقرار بكل مافعلا وأضمرا .

فقال لهما : إن الامبراطور لم يزل صديقكما ، وعفا عنهما ، ودعاهما إلى تناول الطعام معه ؛ و بينما هو محتفل بهما فى قاعة قصره ، جىء إليه بسيفين فنظر فيهما ، ثم أعطى كل واحد منهما سيفاً لينظر فيه ، وكان غرضه من ذلك أن يؤكد لهما ثقته بهما ، وأنه لا يخشى منهما غدراً ، فصارا من أعظم أنصاره ولذلك ، ولمناقبه الحسان لقبوه (برهرة نوع الإنسان) وهو الذى لما فاته يوم ، ولم يحسن إلى أحد ، بكى وصرخ قائلاً : قد ضاع يوم من عمرى .

عفو المأمون وحلمه وسماحة نفسه

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتابه :

كان للمأمون خادم يتولى وضوءه،فكان يسرق طَساته،فبلغ ذلك المأمون فعاتبه ، ثم قال له يوماً وهو يوضئه :

ويحك ! لِمَ تسرق هذه الطسات ؟ لو كنتَ إذا سرقتها أتيتنى بها لأشتريها منك .

قال : فاشتر هذا الذى بين يديك .

قال : بكم ؟ قال بدينارين .

قال المأمون : أعطوه دينارين .

قال : هذا الآن ، فى الأمان .

العفو عند المقدرة

« المأمون وعمه إبراهيم بن المهدى »*

قد جاء فى القصص : أن إبراهيم بن المهدى عم المأمون أبى أن يبايعه ثم ذهب إلى (الرّىّ) وادعى فيها الخلافة لنفسه ، وأقام مالكها سنة وأحدعشر شهرًا ، واثنى عشر يومًا ؛ والمأمون يتوقع منه الانقياد إلى الطاعة والانتظام فى سلك الجماعة ، حتى يئس من عوده ، فركب بخيله ورَجْلِه ، وذهب إلى (الرّىّ) وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب إبراهيم وتنكر ، ثم أُخِذ بعدلأْىٍ وقدم إلى المأمون فى زى امرأة . فلما مثل بين يديه سلّم عليه بالخلافة . فقال المأمون . لاسلّم الله عليك ولاحيّاك ولارعاك ، فقال إبراهيم مهلًا ياأمير المؤمنين إن ولىّ الثأر محكّم فى القصاص ، ولكن (العفو أقرب للتقوى) ومن تناوَل الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذنب دون عفوك ؛ فإن أخذت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك ، ثم أنشد :

« ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه »
« فخذ بحقك أوْلَا فاصفح بفضلك عنه »

« إن لم أكن فى فعالى   من الكرام فكنه »

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق والعباس فى قتلك . فأشاروا به فقال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلت لهما ، نبدؤه بإحسان، ونستأمره فيه ، فإن غيّر فالله يغير مابه .

قال : إما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ، بما جرت عليه السياسة ، فقد فعلا ، و بلغا ما يلزمهما ، وهو الرأى السديد ، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عوّدك الله ، ثم استعبر باكياً .

فقال له المأمون : مايبكيك ؟ قال جذلاً ، إذ كان ذنبى إلى مَن هذه صفته فى الإنعام ؛ ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرمى استحلال دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفعة الإقرار بالذنب ، وحق الأبوة بعد الأب .

فقال المأمون : ياإبراهيم ، لقد حُبِّبَ إلىّ العفوُ حتى خفت ألّا أوجر عليه، أما لو علم الناس مالنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لاتثريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك ، لبلغك ما أملت حسن تفضلك ، ولطف توصلك .

ثم أمر برد ضياعه وأمواله .

فقال إبراهيم :

« رددت مالى ولم تبخل علىّ به   وقبل ردك مالى قد حقنتَ دمى »
« وقام علمك بى فصار عندك لى   مقام شاهد عدل غير متهم »

« فلو بذلت دمى أبغى رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدمى »
« ما كان ذاك سوى عارية سلفت لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم »

عفو بونابرت عن أحد حراسه

كان (بونابرت) حريصاً على حسن النظام بين جنوده ،شديد التنكيل بمن يتعداه ، كثير المراقبة لحركات أعدائه ، يجوس خلال عسكره ليلًا ونهارًا فيحيط بصغار الأمور وكبارها ، ولا يدع الجواسيس يقتربون منه مهما استعملوا من طرق الخداع ، وتظاهروا به من صدق الوداد .

فاتفق ذات ليلة أنه فاجأ أحد حراس المعسكر وكان نائمًا ، بعد واقعة عنيفة اشتدت نيرانها ، وطال زمانها ، فجرده من بندقيته ، ووقف للحراسة بدله ولما استيقظ الحارس ، ورأى مولاه واقفًا أمامه ، ارتعدت فرائصه من رؤيته ،وخشى سوء العاقبة على نفسه ، فأنس منه ذلك (بونابرت)فبادره بقوله:

لا خوف عليك أيها البطل ، إذ لا يستحيل النوم على جندى مثلك ناله ما ناله من المشاق فى الدفاع عن الأوطان ، ولكن من الآن إذا أردت أن تنام ينبغى أن تختار لنومك وقتًا أنسب من هذا ، وعفا عنه .

حسن البيان ، يستوجب العفو والغفران

خرج تميم بن جميل على المعتصم فظفر به ، وأحضر له السيف والنطع وكان تميم وَسيماً جميلًا ، فأحب المعتصم أن يعرف أين لسانه من منظره ؟ فقال له : تكلم .

فقال : أما و إذ قد أذنت يا أمير المؤمنين فإنى أقول :

« الحمد لله الذى أحسن كل شيء خَلقه ، و بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسلَه من سُلالة من ماء مهين ، جبَر الله بك صَدع الدين ، ولَأمَ بك شَعث المسلمين ، وأوضح بك سراج الحق ، وأخمد بك شهاب الباطل . إن الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة، وتعيي الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظُمت الجريرة، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك ، أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربُهما منك ، وأسرعهما إليك ، أسبقهما ، وأولاهما بكرمك .

ثم أنشد :

أرى الموتَ بين السيف والنِّطع كامناً ... يُلاحظنى من حيثما أتلفّت

وأكبرُ ظنى أنك اليوم قاتلى ... وأىُّ امرىءٍ مما قضى الله يُفلِت

ومَن ذا الذى يدلى بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَت

وما جزعى من أن أموت وإننى ... لأعلم أن الموتَ شيء مُوَقَّت

ولكن خلفى صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حَسرة تتفتّت

فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مُتُّ موتوا

فكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسرّ ويَشْمَت

فتبسم المعتصم وعفا عنه .

(ثمار الإنشاء)

الاعتراف بالذنب موجب للعفو والغفران

أراد أمير أن يتفقد أحوال السجناء ، فدخل سجناً كبيراً وجد فيه كثيراً من الأشقياء ، فأقبل عليهم يحادثهم ليعرف أنواع الجرائم التى ارتكبوها وأدّت إلى زجّهم فى السجن ، فبادر واحد منهم تلوح على وجهه مخايل الذكاء وقال له .

ما الذى جنيته حتى حلّ بك هذا العقاب ؟

فقال الرجل : يامولاى ، إنى برىء مما اتهمونى به ، ولم أرتكب خطيئة أو إثماً ، فجد بإطلاقى ، والله يتولاك بحسن الجزاء .

ثم مال الأمير على ثان وثالث ورابع يسأل عن سبب دخوله السجن فلم يختلف جوابهم فى معناه عن الأول ، وكلهم ادعى النزاهة والبراءة وطلب الإفراج .

وأخيراً وقعت عين الأمير على رجل كبير كئيب يحاول أن يتوارى فى زوايا المكان لكيلا يراه أحد فأقبل عليه الأمير وسأله عن سبب حبسه .

فقال الرجل : يامولاى ، لقد أتيت إثماً كبيراً ، إذ لعب الشيطان بعقلى، وزيّن لى حب الغنى ولو بغير حق ، فشرعت فى ارتكاب السرقة فضبطنى عسسك ، وحكم علىّ القاضى بالسجن كما ترانى .

فالتفت الأمير إلى حاشيته وقال : من الخسة أن يعيش هذا السارق الخائن بين أظهر هؤلاء الرجال ، فأطلقوه وأريحوهم منه لئلا يُعديهم .

وبعد ذلك قال لحاشيته : إن الاعتراف بالذنب دليل على الرجوع عنه ، وأما نكرانه فدليل على استحسانه والإصرار عليه . (القراءة الرشيدة)

حسن الاعتذار يوجب العفو والصفح

بعث زياد إلى معاوية برجل من بني تميم كان من أهل الفتنة .

فلما مُثِّل بين يديه قال له معاوية : أنت القائم علينا ، المكثر لعدونا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إنما كانت فتنة عمَّ عماها ، وأظلم دجاها ، نزا فيها الوضيع ، وخف الحليم الرفيع ، فاحتدَمت ، وأكلت علينا وشربت حتى إذا انحسرت ظلماؤها ، وانكشف غطاؤها ، آل الأمر إلى مآله ، وصرَّح عن محضه ، وارتفع العبوس ، وثابت النفوس ، فتركنا فتنتنا، ولزمت عصمتنا، وعرفنا خليفتنا ، ومن يجد متاباً ، لم يرد الله له عقاباً ، ومن يستغفر الله ، يجد الله غفوراً رحيماً .

فعجب معاوية من فصاحته ، وجميل اعتذاره ، وعفا عنه ، وأحسن إليه.

إجارة مَعْن لرجل استغاث به

وكان المنصور قد أهدر دمه

روى أن أمير المؤمنين المنصور أهدر دم رجل كان يسعى بفساد دولته مع الخوارج من أهل الكوفة ، وجعل لمن دلَّ عليه أوجاء به مائة ألف درهم ثم إن الرجل ظهر في بغداد . فبينما هو يمشي مختفياً في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة يعرفه ، فأخذ بمجامع ثيابه ، وقال : هذا بُغية أمير المؤمنين .

فبينما الرجل على هذه الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت ، فإذا (معن ابن زائدة) فاستغاث به وقال له : أجرنى أجارك الله . فالتفت (معن) إلى الرجل المتعلق به وقال له : ماشأنك وهذا ؟ فقال له : إنه بغية أمير المؤمنين الذى أهدر دمه ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فقال : دعه ، وقال لغلامه : انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها .

فصاح الرجل المتعلق به ، وصرخ واستجار بالناس وقال :

حال بينى وبين بغية أمير المؤمنين . فقال له معن :

اذهب فقل لأمير المؤمنين وأخبره أنه عندى .

فانطلق الرجل إلى المنصور فأخبره . فأمر المنصور بإحضار (معن) فى الساعة . فلما وصل أمر المنصور إلى (معن) دعا جميع أهل بيته ومواليه وأولاده وأقاربه وحاشيته وجميع من يلوذ به وقال لهم : أقسم عليكم بأن لايصل إلى هذا الرجل مكروه أبداً وفيكم عين تطرف . ثم إنه سار إلى المنصور ، فدخل وسلم عليه ، فلم يرد عليه المنصور السلام . ثم إن المنصور قال له : يامعن أتتجرأ على ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين . فقال المنصور : ونعم أيضاً . فقال معن : كم من مرة تقدم فى دولتكم بلائى ، وحسن عنائى ؟ وكم من مرة خاطرت بدمى ؟ أفما رأيتمونى أهلا بأن يوهب لى رجل واحد استجار بى بين الناس بوهمه أنى عبد من عبيد أمير المؤمنين وكذلك هو فمر بما شئت هاأنذا بين يديك .

قال : فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقد سكن ما به من الغضب

وقال له : قد أجرنا كم يامَعْن . فقال له مَعْن :

إن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين ، فيأمر له بصلة ليكون قد أحياه وأغناه .

فقال المنصور : قد أمرنا له بخمسة آلاف درهم .

فقال له مَعْن : ياأمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل صِلته .

قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم .

فقال له مَعْن : عجلها ياأمير المؤمنين ، فإن خير البرِّ عاجله ، فأمر بتعجيلها، فحملها وانصرف ، وأتى منزله وقال للرجل : يارجل خذ صلتك وانصرف والحقْ بأهلكِ ، وإياك ومخالفة الخلفاء فى أمورهم بعد هذا .

(للأبشيهى)

عن مجانى الأدب

ص ١٨٦– جزء ٢

حكايات وأمثال

فى فضل العفة والنزاهة

تعفف على بن أبى طالب ، وشدة محافظته على مال المسلمين

قال على بن أبى رافع : كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلىّ بنت على بن أبى طالب فقالت لى : إنه قد بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ ، وهو فى يدك وأنا أحب أن تعيرنيه ، أتجمل به فى يوم الأضحى ، فأرسلت إليها قائلا : إنه عارية مضمونة ، مردودة بعد ثلاثة أيام ، يابنت أمير المؤمنين .

فقالت : نعم ، عارية مضمونة ، مردودة بعد ثلاثة أيام .

فدفعته إليها ، وإذا بأمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ، فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرته من ابن أبى رافع ، خازن بيت أمير المؤمنين لأتزين به فى العيد ثم أرده .

فبعث إلىّ أمير المؤمنين فجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يابن أبى رافع ؟ فقلت : معاذَ الله أن أخون المسلمين ، فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إنها بنتك ، وسألتنى أن أعيرها تتزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة ، على أن ترده سالما إلى موضعه ، فقال : رده من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثله فتنالك عقوبتى .

ثم قال: ويل لابنتي! لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة لكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها في سرقة. فبلغت مقالته ابنته فقالت له: يا أمير المؤمنين أنا ابنتك، وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟ فقال لها: يابنت ابن أبي طالب لاتذهبي بنفسك عن الحق، أكل نساء المهاجرين والأنصار تتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا؟ فقبضته منها، ورددته إلى موضعه.

(لبهاء الدين)

تعفف ونزاهة الحسن بن علي

خرج معاوية سنة حاجًّا، فمرّ بالمدينة، ففرق على أهلها أموالاً جزيلة، ولم يحضر الحسن بن علي، فلما حضر، قال له معاوية: مرحبًا، مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا، وتعرض لنا ببخلنا.

فقال الحسن: كيف ينفد ما عندك، وخراج الدنيا يجبى إليك؟

فقال معاوية: قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة، وأنا ابن هند

فقال الحسن: قد رددته عليك، وأنا ابن فاطمة الزهراء.

تعفف عُمر بن عبد العزيز

مثال أول

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز أعف وأعدل بني مروان، وهو ابن مروان ابن الحكم، وُلد سنة ستين من الهجرة حين كان أبوه واليًا على مصر، وكان له بجدِّه (الفاروق) أسوة حسنة، ماأخذ لنفسه، ولا لأولاده من بيت المال شيئًا

ومما يؤثر عنه: أنه استفتح ولايته ببيع ما كان يملكه (سليمان) من ملابس وغيرها ، حتى اجتمع لديه من ذلك مبلغ عظيم وضعه فى بيت المال ؛ كما أنه باع ثوب قرينته بنت عبد الملك ووضعه فى بيت المال ، علماً منه أن ما أنفق عليه هو من بيت مال المسلمين .

وكان إذا قدم عليه وفود الشعراء لم يأذن لهم ، وكان يقول لابنه :

قل : « إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

ومات عن اثنى عشر غلاماً لم يترك لهم شيئاً ، لعفته وأمانته .

ولما حضرته الوفاة جمعهم ، وجعل يصوب نظره إليهم ويصعده ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال :

بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ، يابنى إنى خيرت نفسى بين أن تفتقروا إلى الأبد ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فاخترت الأول .

يابنى عصمكم الله ورزقكم ، وقد وكلت أمركم إلى الله ، الذى أنزل على عبده الكتاب ، وهو يتولى الصالحين .

وكان عنده وقتئذ (مسلمة بن عبد الملك) فوهبه أربعين ألفاً ليفرقها على أولاده ، وقال له : عن طيب نفس فعلت .

فقال رضى الله عنه : أوصيك أن تفرقها على من أخذت منهم ظلماً .

ثم توفى رحمه الله سنه ١٠١ مائة وواحد هجرية ، ومكث فى الخلافة سنتين وخمسة أشهر كان فيها متحرياً سيرة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

مثال ثان

من شدة عفته يقال : إنه كان ينظر ليلًا فىقصص الرعية فى ضوء السراج فجاء غلام فحدثه فى أمر يتعلق ببيته .

فقال له عُمر : أطفىء السراج ، ثم حدثنى، لأن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، ولا يجوز استعماله إلا فى أشغال المسلمين .

مثال ثالث

كان لعمر بن عبد العزيز غلام وكان خازنًا لبيت المال ، وكان لعمر بنات فجئنه (يوم عرفة) وقلن له : غدًا العيد،ونساء الرعية و بناتهم يلمننا و يقلن أنتن بنات أمير المؤمنين ، ونرا كن عاريات ! لاأقل من ثياب بيضاء تلبسنها،و بكين عنده ، فضاق صدر عمر ، فدعا غلامه الخازن وقال له : أعطنى مشاهرتى لشهر واحد .

فقال الخازن : ياأمير المؤمنين ، تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا ،أتظن أن لك عمر شهر فتأخذ مشاهرة شهر ؟

فتحير عمر وقال : نعم ما قلت أيها الغلام ، بارك الله فيك .

ثم التفت إلى بناته وقال : اكظمن شهواتكن ، فإن الجنة لا يدخلها أحد إلا بمشقة . «كشكول جمال جـ ٣ »

مثال رابع

أهدى رجل إلى عمر بن عبد العزيز تفاحاً لبنانياً ، كان قد اشتهاه فرده لصاحبه .

فقيل له : أما بلغك أن رسول الله ﷺ كان يأكل الهدية ؟

فقال : إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية حلالاً ، ولنا رشوة أكلها حرام فى حرام .

وكان من دعائه : اللهم أعطنى من الدنيا ما يكفينى عن شهواتها، ويعصمنى من فتنتها ، ويغنينى عن جميع أهلها .

كما كان يقول أحد الصالحين : اللهم اكفنا شر هذه الدنيا ، وشر بلائها ولا تجعلها أكبر همِّنا .

مثال خامس

قال (جرير بن حازم) عن رجل ، عن فاطمة بنت عبد الملك ، قالت : اشتهى عمر بن عبد العزيز يوماً عسلا فلم يكن عندنا ، فوجهنا رجلا على دابة من البريد إلى (بعلبك) فأتى بعسل ، فقلنا : إنك ذكرت يوماً عسلا وعندنا عسل فهل لك فيه ؟

قال : نعم .

فأتينا به فقرب ، ثم قال : من أين لكم هذا العسل ؟

قال : قالت ، وجهنا رجلا على دابة من دواب البريد بدينارين إلى (بعلبك) فاشترى بهما عسلا .

قال : فأرسل إلى الرجل ، فجاءه فقال : انطلق بهذا العسل إلى السوق فبعه ، فاردد إلينا رأس مالنا ، وانظر إلى الفضل واجعله فى بيت مال المسلمين علف دواب البريد « نظير أجرة حملها العسل » .

مَعْن والجندى الحارس

مثال فى عفة النفس

حكى مروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور قال

أخبرنى معن بن زائدة،وهو يومئذ متولى بلاد اليمن : أن المنصور جد فى طلبى ، وجعل لمن يحملنى إليه مالا . قال : فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهى،وخففت عارضى ، ولبست جبة ،وركبت جملا ، وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها .

قال : فلما خرجت من باب حرب ، وهو أحد أبواب بغداد تبعنى أسود متقلد بسيف ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قبض على خطام الجمل فأناخه ، وقبض على يدى ، فقلت له : ما بك ؟ فقال : أنت طلبة أمير المؤمنين .

فقلت : ومن أنا حتى أطلب ؟

فقال : أنت معن بن زائدة .

فقلت له : ياهذا اتق الله عز وجل ، وأين أنا من معن ؟

فقال : دع هذا ، فإنى والله لأعرف بك منك .

فلما رأيت منه الجد قلت له : هــــذا عقد جوهر قيمته أضعاف ما جعله

المنصور لمن يجيئه بي ، فخذه ولا تـكن سبباً لسفك دمى .

قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر فيــه ساعةً وقال : صدقت فى قيمته ولستُ قابله منك حتى أسألك عن شيء ، فإن صدقتنى أطلقتك .

فقلت : قل .

قال : إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرنى هل وهبت مالَك كله قَط ؟

قلت : لا .

قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العُشر فاستحييت وقلت : أظن أنى فعلت هذا .

قال : ماذاك بعظيم ، أنا والله راجِل ، ورزقى من أبى جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً ،وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ، ولجودك المأثور بين الناس .

ولتعلم أن فى هذه الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ، ولا تتوقف عن مكرمة .

ثم رمى العقد فى حجرى ، وترك خطام الجمل ، وولى منصرفا .

فقلت : ياهــذا ، والله قد فضحتنى ، ولسفك دمى علىّ أهون مما فعلت ، فخذ مما دفعته لك ، فإنى غنى عنه . فضحك وقال : أردت أن تـكذبنى فى مقالى هذا ، والله لا أخذته ، ولا آخذ لمعروف ثمنا أبداً ، ومضى لسبيله .

فو الله لقد طلبته بعد أن أمنت ، و بذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرفت له خبراً ، وكأن الأرض ابتلعته ، ولم يزل معن مستتراً حتى كان (يوم الهاشمية).

ابن خلكان ص ١٠٩ ج ٢

مثال العفة والنزاهة

أصيب شخص بمرض شديد ، فأشار عليه الأطباء بالتوجه إلى إحدى مدن الوجه القبلي لتغيير الهواء ، وطلباً للصحة ، فقصد أحد أصدقائه الأطباء الأمناء ونزل عنده ضيفاً ، فأكرم مثواه ، وقام له بواجب الأخوة والصداقة ؛ ولكن مع الأسف أدركته الوفاة وهو فى داره ، وكان معه خُرْج به بعض ملابسه الضرورية ، وكيس نقود يحتوي على أربعة آلاف جنيه ذهباً ، مجموع ثروته التي جمعها فى حياته ، فأبت نفس هذا الصديق العفيف أن يأخذ شيئاً من ماله، بل أخذ الخُرْجَ وما فيه من الأمتعة والنقود ، وذهب به إلى المديرية التابعة لها المدينة وقدَّمه إليها ، وأثبته فى دفاترها ، حتى يحضر ورثته لتسلمه ، ثم عاد إلى صاحبه فشيّع جنازته ، ودفنه بمقبرته ، وأخطر أسرته ، وبذلك قام بواجب العفة والوفاء ، واستحق من الناس جميل الثناء ، والذكر المستطاب ، ومن الله جزيل الأجر والثواب .

لا تأكلوا أموال الناس بالباطل

يحكى أن إبراهيم بن أدهم مرّ يوماً ببساتين (بخارى) فنزل فى بعض أنهارها ، وإذا بتفاحة يحملها الماء فقال :

هـذه لا قيمة لها فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس فعزم أن يستحل صاحب البستان .

فلما قرع بابه،خرجت إليه جارية فقال : ادعى لى صاحب البستان فقالت: إنها امرأة .

فقال : استأذنى لى عليها .

فجاءت ، فأخبرها بخبر التفاحة .

فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ، ونصفه للسلطان ، وقد نزلت عن حقى ، وكان السلطان يومئذ (ببلخ) فذهب إليـه واعترضه فى موكبه وأخبره الخبر ، واستحله ، فانذهل السلطان من أمره ، وتعجب من ضميره وأمانته ، ووصله بصلة . (بحر الآداب)

الرجل النزيه والغلام الصادق

روى أن تاجراً أرسل ولده لأحد عماله ومعهُ صرّة من النقود فسقطت منه أثناء سيره ، فصار الولد يبحث عنها وهو يبكى ، فمرّ به رجل كان قد وجد الصرّة بطريق المصادفة .

فسأله عن سبب بكائه ، فقص عليه الغلام أمره .

فأخرج الرجل له صُرّةً كبيرةً كانت معه وقال له : أهذه صُرّتك ؟

فقال الولد : لا .

ثم أخرج له أخرى أصغر من الأولى ، وهى الصرّة التى وجدها فى طريقه وقال له : أهذه صُرّة نقودك ؟

قال : نعم .

فدفعها إليه وقال له : اذهب فهى حلال لك ، وأثنى على صدقه ، كما أن الغلام أثنى على الرجل لنزاهته ، وعفة نفسه .

نزاهة (قوسيون)

هذا القائد الطائر الصيت فى (أثينا) كان دائماً من دعاة السلم مع (مقدونيا) فأرسل إليه (الإسكندر) ملك مقدونيا ، عن امتنانه هدية ثمينة .

فسأل (قوسيون) الذين حملوها إليه عن غاية (الإسكندر) من تقديم هذه الهدية السنية إليه .

فأجابوه : لأنك أشرف رجل عرفه الإسكندر فى (أثينا) للآن .

فقال : إن كان الإسكندر يعتبرنى بهذه الصفة فليأذن لى أن أبقى ثابتاً عليها وأبى قبول الهدية .

وحينما فعل ذلك الفعل الشريف ، كان هو بنفسه يستقى الماء من بئر وامرأته تخبز الخبز .

وثبت فيما بعد على رفض هدايا الإسكندر والملوك خلفائه تعففاً منه .

ولما قيل له : إذا كنت لا تقبل المال لنفسك ، فعليك أن تقبله لأولادك أجاب : إن كان أولادى عقلاء فيكتفون بما يكفينى ، و يعيشون شرفاء وإلّا فكثير عليهم ماعندى .

نزاهة هنرى دى مسم

لما عرض (هنرى الثانى) ملك فرنسا منصب المدعى العمومى على رجل

الفضل «هنرى دى مسم» أحد مشهورى المتشرعين فى عصره نبهه هذا الرجل إلى أن هذا المنصب لم يكن خالياً ؛ بل يشغله رجل غيره .

فأجاب الملك : إن المحل خالٍ ، لأنى قصدت أن أخلع عنه مَن يشغله .

فقال هذا المتشرع : عفواً يامولاى ، أحبُّ إلىَّ أن أحفر الأرض بأظافرى من أن أدخل إلى هذا المنصب بمثل هذا السبيل .

قال ذلك « هنرى دى مسم » بعد أن امتدح لطف العامل الشاغل لهذا المحل الواقع تحت خطر العزل والانفصال .

فاعتبر الملك بهذه الملاحظة واستبقى المدعى العمومى فى منصبه .

فهذا العامل بادر إلى (هنرى دى مسم) يقدم له تشكراته ؛ ولكن هذا الرجل النزيه الكريم أجابه : كيف أُشكر على عمل أعد القيام به فرضاً واجباً ، والإخلال به عاراً فاضحاً .

فانظر إلى عفة نفس هذا الرجل وكرم أخلاقه .

حكايات وأمثال فى الأمانة

أمانة النبي الكريم (ﷺ)

عرف النبي الكريم منذ نشأ بالأمانة والصدق ، وهما من أخص صفات الأنبياء والمرسلين، والمرشدين المصلحين ، لم يقع منه فى ذلك هفوةً ، ولم تحفظ عنه زلةٌ ،حتى اشتهر بين قومه وهو فى ريعان (مقتبل) شبابه بالأمين،فكانوا يودعونه ودائعهم ، ويستحفظونه أماناتهم .

ولما اختلفت قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع (الحجر الأسود) حكّموا أول داخل عليهم ، فإذا محمد ﷺ داخل ، وذلك قبل النبوة فقالوا : هذا محمد ، هذا الأمين ، قد رضيناه حَكَماً .

أما من جهة صدقه ، فقد لقيَ رجل أبا جهل — وكان من ألد أعداء الرسول بعد رسالته — فقال له :

ياأبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا فخبرنى عن محمد ، صادق أم كاذب ؟

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ؛ ومع ذلك لم يؤمن به عناداً واستكباراً .

وسأل (هرقل) عنه (أبا سفيان) قبل أن يسلم أبو سفيان ، فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا .

وقال (النضر بن أبى الحرث) لقريش المكذبين لمحمد: قد كان محمدفيكم

غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب،وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر،لا واللهماهو بساحر.

فهذه شهادة ثلاثة من أعاظم قريش اتفقوا على صدقه وأمانته ، والفضل ماشهدت به الأعداء .

التشجيع على الأمانة

مرّ عبدالله بن عمر بن الخطاب براع مملوك ومعه غنم سيده ، فأراد أن يمتحن أمانته فقال له : هل من جزرة (شاة تصلح لأن تجزر) ؟

قال الراعى : ليس هاهنا ربها . قال ابن عمر : تقول له إن الذئب أكلها

فقال له الراعى : اتق الله .

فسرّ ابن عمر من هذه الأخلاق الفاضلة، وشعر فى نفسه بضرورة تشجيع صاحبها عليها ، فاشترى الراعى من سيده وعتقه،واشترى الغنم أيضًا ووهبها له

أمانة أبى عبيدة بن الجراح

يحكى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى أبى عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار وقال للرسول : انظر مايصنع ؟ قال : فقسمها أبو عبيدة .

قال : ثم أرسل إلى مُعاذ بمثلها وقال للرسول ، مثلَ ماقال ، فقسمها معاذ إلا شيئًا قالت امرأته : نحتاج إليه .

فلما أخبر الرسول عمرقال : الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا .

ويكفى للدلالة على أمانته أن قال فيه الرسول ﷺ :

عن أبى قلابة عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «ألا إن لكل أمة أميناً ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

ويحكى أن أناساً من أهل (نجران) أتوا النبىّ ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلاً أميناً . قال : لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقّ أمين ، حقّ أمين ، حقّ أمين (قالها ثلاثاً) فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ قال : فبعث أبا عبيدة بن الجراح . « الطبقات الكبير ج ٣ »

أبو هريرة ومال البحرين (لا أبو عبيدة)*

أخبرنا عمرو بن الهيثم قال : حدثنا أبو هلال عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال . كنت عاملا (بالبحرين) فقدمتُ على عمر بن الخطاب فقال : عدوًّا لله ولكتابه ، سرقتَ مال الله .

قلتُ : لا ؛ ولكنى عدوٌّ من عاداهما ، خيلٌ لى تناتجت ، وسهام لى اجتمعت ، فأخذ منى اثنى عشر ألفاً .

قال : ثم أرسل إلى بعد ألا يعمل ؟

قلت : لا . قال. لِمَ ؟ أليس قد عمل يوسف ؟

قلت : يوسف نبى بن نبى ، فأخشى من عَمَلِكم ثلاثاً أو اثنين .

قال : أفلا تقول خمساً ؟

قلت . لا ، أخاف أن يشتموا عرضى ويأخذوا مالى ، ويضربوا ظهرى وأخاف أن أقول بغير حلم ، وأقضى بغير علم :

وفى رواية أخرى

حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال:

قال لى عمر ياعدوّ الله ، وعدو كتابه أسرقتَ مال الله ؟

قال: فقلت : ماأنا بعدو الله ، ولا عدو كتابه ، ولكنى عدوّ مَن عاداهما ولا سرقت مال الله .

قال : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف ؟

قال : قلت : ياأمير المؤمنين خيلى تناسلت ، وسهامى تلاحقت ، وعطائى تلاحق .

قال : فكان أبو هريرة يقول : اللهم اغفر لأمير المؤمنين .

الأمانة كنز

تقدم غلام صغير فى الطريق إلى سرىّ مارٍّ به واستجداه شيئاً من العطاء يسد به حاجته ، فأعطاه قرشاً ، فأخذه الولد شاكراً ودعا له بالخير على ماجاد به عليه من المعروف .

ولما ابتعد السَّرى من الصبى خطوات سقط كيس نقوده ورآه الغلام وهو يسقط ، فمشى والتقطه ، وجرى نحو السَّرى مسرعاً وتقدم إليه قائلا : هذا كيس نقودك ياسيدى سقط منك فالتقطُّه ، وجئت به إليك ، فأخذ السَّرى منه الكيس معجباً بأمانة غلام فقير مثله ، وقال : أتحب يابنىَّ أن تكون مكافأتك منى على أمانتك أن أعطيك نقوداً أو أجد لك عملا ترتزق منه؟

فقال الصبي : العمل ياسيدى خير من نقود آخذها فتفقد سريعاً وتبقى حاجتى .

فسرَّ السَّرى بإجابته ، كما سرته أمانته ، وأخذه تلميذاً بالكراء يتعلم الحياكة فى محاكة له .

و بعد سنين قلائل كان الصبي من أمهر العمال فى المصنع ، وأكثرهم راتباً وأخيراً تولى رياسة العمل كله بسبب مهارته و إخلاصه وأمانته ، وعاش فى خفض من العيش ورغد .

جزاء الأمانة

طلب رجل فقير صدقة من أحد الأغنياء ، فأراد أن يعطيه درهماً فأخرج من جيبه ديناراً خطأً ، وأعطاه إياه خطأ ، فجرى وراءه وقال له : انظر يامولاى فقد أعطيتنى ديناراً ، فلعلك تكون قد أخطأت ؟ فأخرج المحسن ديناراً آخر ، وأعطاه إياه ، وقال له :

وهذا جزاء أمانتك وصدقك .

الخازن الأمين

كان ملك من الملوك عنده راعى غنم متصف بالصدق والأمانة والاستقامة فرقاه إلى وظيفة خازن (مخزنجى) فحسده بعض الأعداء على وصوله إلى هذا المركز الشريف ، ووشوا به إلى الملك ، واتهموه بأنه اختلس كنوز الملك ، وأنه خبأها فى قبو مخصوص ، له باب من حديد .

فأراد الملك أن يقف على حقيقة الأمر بنفسه ، فزار خازنه ،وطلب منه أن يفرجه على جميع مَحَالٍّ بيته ، فلما شاهد الباب الحديديّ أمر بفتحه فلم ير فيه إلا أربعة حيطان ، ولم يجد من الأمتعة سوى طاولة صغيرة وكرسى من قش وعصا الراعى ، وكان شباك بيته على مروج خصبة .

ولما شرف الملك بيت خازنه قال الخازن : كنت ياسيدى قبل الآن أرعى الغنم ، وأنت أيها الملك العظيم أحضرتنى إلى قصرك بعد أن رفعتنى إلى هذه المنزلة ، وكنت أقضى كل يوم ساعةً فى هذا القبو متذكراً أيام الفرح والسرور التى كنت عليها فى حالتى الأولى ، ومتذكراً الألحان الشجية التى كنت أتغنى بها حينما كنت أرعى الغنم بهدوء وسكينة ، فهلا تأذن لى بأن أعود إلى سيرتى الأولى ؟ حيث كنت أقضى عيشة راضية سعيدة ، هى عندى خير من وجودى فى وسط الأبهة والفخفخة فى قصرك الملكى ، المحاط بالدسائس والحسد والوشايات .

فغضب الملك غضباً شديداً على رجال بلاطه الذين وشوا بهذا الخازن الأمين وعانقه وطلب إليه ألا يفارقه ، وأنعم عليه بإنعام يليق به ، جزاء أمانته .

فالسعادة ليست فى الذهب ولا فى الفضة ؛ « إنما السعادة الحقيقية توجد فى قلب الرجل الشريف الفاضل » .

عاقبة الأمانة (مفخرة للمصريين)

هاجر أحد المصريين إلى أمريكا لخلاف بينه و بين أهله يطلب فيها رزقاً فتقلبت به الأحوال هناك زمناً طويلاً، حتى أتقن لغة البلاد، ووصل إلى وظيفة نساخ ــ لحسن خطه ــ فى أحد البيوت المالية .

و بينما هو فى عمله ذات يوم، إذ بصر بمحفظة متروكة على إحدى الطاولات بالقرب منه ، فدنا منها وتناولها وفتحها ، فوجد فيها أوراق نقود بمبلغ ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف جنيه ، فلم تدفعه الحاجة ، ولم يستهوه شيطان الطمع إلى إخفائها ، حيث لا يبصره أحد ، بل توجه بها إلى رئيس البيت وسلمها له وأخبره خبرها، فحفظها الرئيس عنده حتى وصل البحث بصاحبها عنها فى مظانها ، أن حضر إلى ذلك البيت المالى ، فعلم بوجودها عند الرئيس ، فسلمها إليه وقص عليه : أن الذى لقيها شاب مصرى حديث الخدمة فى وظيفة صغيرة فى البيت ، فذهب الرجل بها إلى المصرى وأعطاه مائتى ريال مكافأة له فلم يقبلها منه ، فتوجه الرجل إلى الرئيس وأخبره بإباء المصرى ، فقال له : اترك المكافأة عندى ، فتركها عنده ، ومضى لسبيله ، ثم استدعى الرئيس بعد ذلك المصرى وسأله عن سبب رفضه المكافأة ، فقال له :

إنى لم أعمل إلا الواجب علىّ للبيت ؛ ولست أرى حقاً فى هذا إلّا بإذن منك .

فقال : قد أذنتك ، فأخذها ومضى .

وفى اليوم التالى ، جمع الرئيس المستخدمين الذين يعملون ذلك المصرى

درجةً فى الوظيفة بحضوره ، وحكىٰ لهم حكايته ، وقال لهم ؟ إن هـذا الشاب ليس له الحق فى الترقى قبلكم ، ولـكن العمل الذى عمله مما يعود على البيت بحسن الصيت،وتلك خدمة عامة لمصلحتنا جميعاً . فلذلك أستسمحكم فى ترقيته عليكم درجةً على خلاف النظام . فأجابوه على ذلك بحسن الرضا ، فعينه فى وظيفة بتسعين ريالًا فى الشهر ،وعند انصراف الرئيس إلى بيته أركب المصرى معه فى مركبته ، وتوجه به إلى منزله ،فقدمه إلى زوجته وأولاده وقصّ عليهم قصته ، فبهرهم بهذه الفضيلة التى كأنها عندهم أعجوبة من أعاجيب الشرق .

فللمصريين أن يفخروا بهذا الشاب الذى خلد لهم فى البلاد القصية ذكراً بفضيلة الأمانة ، وحسن القيام بالواجب .

مثال الأمانة

حكى : أنه لما كانت الجنود الفرنسية تحارب (ألمانيا) أمر قائدأحدضباطه أن يتوجه إلى إحدى القرى المجاورة ويأتى بعلف للخيل ، فخرج الضابط بفرقته، وواصل مسيره حتى لاح له كوخ صغير فقصده ، وقرع بابه ، فخرج له شيخ جليل قد ابيضت لحيته الطويلة كاللبن تلوح على وجهه سمة الاحترام، والتقوىٰ تتدفق من عينيه ، والصلاح يتلألأ فى جبينه ، فتقدم إليـه الضابط وحياه باحترام وقال له :

دلّنا ياوالدى على حقل قريب نأخذ للخيل منه مرعاها .

فأشار الشيخ إشارة الطاعة ، وتقدم أمامهم يهرول ، والضابط يتبعه بفرقته

حتى وصلوا إلى حقل قد طاب شعيره ، فأراد الضابط أن يترجل فأشار له الشيخ أن يسيروا إلى أحسن منه ، فجدوا السير وهم كلما يمرون على حقل ويقصد الضابط أن يترجل يشير له الشيخ أن يتقدم ويقول له : هلموا بنا يا سادتى نسير قليلاً لنصل إلى حقل أحسن من كل ماترون ، فلم يزل بهم ، وهو يتقدمهم ، حتى وصلوا إلى حقل بعيد وقال الشيخ : هاهنا يا سيدى يكون المرعى .

فترجل الجند عن خيولهم ، وأخذ كل يحصد ويحمل على جواده قدر استطاعته ثم انثنوا راجعين .

وفى أثناء الطريق قال الضابط للشيخ : لقد حملتنا يا والدى مشقة السير طويلاً بدون فائدة تذكر ، فقد كان فى طريقنا حقول أطيب من الذى دللتنا عليه .

فقال الشيخ : نعم صدقت ياعزيزى إلا أنى لا أمتلكها .

وليس من الأمانة أن أشير بأخذ مال الغير ، ولا يجوز للإنسان أن يتصرف فى مال غيره بغير إذنه ، بل يضحى ماله فى سبيل حفظ مال غيره . فشكره الضابط على أمانته وانصرف .

وأخذ يضرب به المثل فى الأمانة .

التاجر الأمين

قال ابن الخريف : حدثنى والدى قال : أعطيت أحمد بن حسب الدلال ثوباً وقلت : بعه لى وبيّن هذا العيب الذى فيه ، وأريته خرقاً فى الثوب ،

فمضى وجاء فى آخر النهار فدفع إلىّ ثمنه وقال : بعته إلى رجل أعجمى غريب بهذه الدنانير .

قلت له : وأريته العيب وأعلمته به ؟ فقال : لا ، وإننى نسيت ذلك فقلت : لاجزاك الله خيراً ، امض معى إليه ، وذهبت معه ، وقصدنا مكانه ، فلم نجده ، فسألنا عنه ، فقيل لنا : إنه رحل إلى مكة مع قافلة الحجاج . فأخذت صفة الرجل من الدّلال ، واكتريت دابةً ولحقت القافلة ؛ وسألت عن الرجل فدُللت عليه ، فقلت له : الثوب الفلانى الذى اشتريته أمس من الدلاّل فلان بكذا وكذا فيه عيب فهاتِه وخذ ذهبك فقام وأخرج الثوب وطاف على العيب حتى وجده .

فلما وجده قال : ياشيخ أخرج ذهبى حتى أراه ، وكنت لما قبضته لم أميزه ولم أنقده ، فأخرجته . فلما رآه قال : هـذا ذهبى انقده يا شيخ فنظرت إليه فإذا هو مغشوش (مزيّف) لا يساوى شيئاً . فأخذه ورمى به وقال لى : قد اشتريت منك هذا الثوب على عَيبه بهـذا الذهب ، ودفع إلى بمقـدار ذلك الذهب المغشوش ذهباً خالصاً جيداً وعدت به .

(مجانى الأدب ج٢ ص ١٨١)

الولاية أمانة

إن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك ؟

فقال : أدركت عمر بن عبدالعزيز فقيل له : يا أمير المؤمنين أفغرت أفواه بنيك من هذا المال ، وتركتهم فقراء لا شىء لهم (وكان فى مرض موته) .

فقال : أدخلوهم علىّ .

فلما رآهم ذرفت عينه ثم قال :

يابَنى ، والله ما منعتكم حقاً هو لكم ، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأَدفعها إليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح ، فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح ، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله ، قوموا عنى .

قال : لقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس فى سبيل الله تعالى يعنى أعطاها لمن يغزو عليها ، قلت هذا ، وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بالأندلس وغيرها ، ومن جزيرة قبرص وثغور الشام والعواصم لطرسوس ونحوها إلى أقصى اليمن .

وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً يقال : إنه أقل من عشرين درهماً .

قال : وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه فأخذ كل واحد ستمائة ألف دينار ، ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس ، أى يسألهم بكفه ، فدلّت السنة على أن الولاية أمانة يجب أداؤها .

كما قال ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه : فى الإمارة « إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحق » .

المرأة الأمينة

حكى : أن امرأة فقيرة تبلغ الثلاثين من عمرها كانت تجلس فى إحدى شوارع باريس ، وبجانبها فتاة صغيرة يبلغ سنها خمسة أعوام ، وأمامها سلة

مُلئت زهوراً ، فمرّ عليها رجل انكليزى يتأبط ذراع ابنة له ، تبلغ الثامنة عشرة فوقفا يقلبان فى الزهور من ورد ونرجس وياسمين ؛ ولما لم يعجبهما شىء من ذلك ألقيا بها فى السلّة وانطلقا ، والتفتت الإبنة فوجدت الفتاة الصغيرة تبكى متأثرةً مما فعلا ، فتأثرت من بكائها ، وتقهقرت قليلا عن والدها وأخرجت من جيبها ورقةً صغيرةً وألقتها على الفتاة ، فأخذتها هذه وأعطتها لأمها فقالت لها : أين وجدت هذه الورقة يابنتى ، فأشارت الطفلة إلى الإبنة الإنكليزيه ونظرت المرأة إلى الورقة فوجدتها ورقة مالية قيمتها خمسون فرنكا .

فقامت تسير مسرعة تتبع طريق الإنكليزى وابنته ، وكانا قد بعدا عنها شوطاً بعيداً ، حتى أدركتهما ومدت يدها بالورقة إلى الإبنة فنظرت هذه إليها نظرة المتجاهل ، وردت يدها ، فالتفت الرجل فوجد المرأة بائعة الزهور ترجو ابنته بأن تأخذ ورقتها ، فمدّ يده وأخذها ووضعها فى محفظته فنظرت الإبنة إلى أبيها نظرة تشف عن التوسل والرجاء بإرجاع الورقة إلى المرأة ، وهمست فى أذنه بضعة كلمات . ولما كان الإنكليز أهل إحساس شريف ، وشعور سليم فإن الرجل فتح محفظته وأخرج منها ورقة مالية قدرها خمسمائة فرنك وناولها للمرأة وقال لها : إن ابنتى كانت أعطتك خمسين فرنكا لأنك فقيرة ومسكينة وأنا أضاعف لك هذا المبلغ عشر مرات لأنى رأيتك صالحة وأمينة .

الغلام والبستانى

قصد غلام بستاناً ليستنشق الهواء النقى ، ويشم الروائح الزكية ، ويبصر

الرياض والأزهار ، فدخله وسار بين أزهاره وأشجاره ، روحة وجيئة ولم يأخذ منه شيئاً ، وفى أثناء ذلك كان البستانى يراقبه وهو لا يدرى .

فلما رجع قابله البستانى بالباب وقال له :

لِمَ لَمْ تأخذ شيئاً من هـذا البستان مع كثرة أزهاره وأشجاره ، وليس عليك رقيب تخشاه ؟

فقال : إن ذلك فعل قبيح ، وإن نفسى كانت معى ، وأكره أن أرتكب القبيح أمامها .

فسُرّ البستانى من جوابه ، وقدم له بعض الأزهار جزاء أمانته فتقبلها ، ومضى مسروراً .

أمانة فقير

اجتمع الصيارفة بمصر على وزن الدنانير والذهب فى الجامع لأجل السلطان فقام فقير من زاوية المسجد فسألهم نصف درهم ، فما أعطوه .

فلما خرجوا ، تركوا كيساً فيه خمسمائة دينار ، فأخذه الفقير وتركه تحت التراب ، فرجع صاحبه ، فقال يا فقير ، تركت هاهنا كيسا فيه خمسمائة دينار أما رأيته ؟

قال : بلى ، وأخرجه ودفعه إليه ، ففتحه فأعطاه خمسين ديناراً .

فقال الفقير : لا أريدها .

فقال صاحب الكيس : كنت تطلب نصف درهم ، فالآن لا تريد أن تأخذ خمسين ديناراً .

قال : كنت أطلب شيئاً على سبيل الإحسان ، والآن لا آخذ شيئا ، فأكون قد بعت ديني بدنياي . « المستطرف »

الولد المسكين الأمين

كان رجل من الأشراف مارًّا فى أحد الشوارع فلقيه ولد مسكين وطلب منه صدقة ؛ فقال له الشريف : ليس معى قطع صغيرة .

فقال الولد المسكين : أنا أصرف لك .

فأعطاه درهما من الفضة تخلصا من إلحاحه ، وسار فى طريقه ، فظن الولد أنه أعطاه إياه ليصرفه له ، فمضى وصرفه ، وعاد فلم يجده حيث تركه ، فلبث يتردد على ذلك المكان أياماً حتى رآه مارًّا فيه فتقدم إليه ، وقدم إليه صرف الدرهم ، فسرّ الشريف من أمانته ، ووضعه فى مدرسة ، وتكفل بمصاريفه ونفقاته كلها . وكان ذلك سبب نجاحه وإسعاده .

أمانة صبي

إن فضيلة الصدق والأمانة لا تكون فقط فى نفوس الكبار ؛ بل قد تكون فى نفوس الصغار ، كما سيتضح لك من قراءة الحكاية الآتية :

صبي (مكوجى) يشتغل بثلاثة قروش ، وهو أمىٌّ لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يعرف المجموع فى كل (فاتورة) يتسلمها من معلمه محصل النقود من الزبائن بموجبها .

وكان عمره لا يزيد على العاشرة ؛ ولكنه نشيط في عمله ، ماهرٌ فيما يعهد به إليه ، حاضرَ الخاطر ، سريعَ الجواب ، ذو ذكاء متوقد ، قد جاء إلى سيدة يحمل الأثواب من عند معلمه ، ومعه قائمة النقود المطلوبة عليها ، فأنقدته المبلغ ، وأقفلت وراءه الباب ، ولم تمر لحظة حتى سمعت نقرة خفيفة تلتها نقرات ، ففتحت السيدة الباب ، فإذا بالصبي ويده تمتد إليها بالدراهم .

فقالت له : ماذا جرى ؟ قال : تفضلى (الفلوس) ياسيدتى .

فقالت له : هل أعطيتك أقل من المطلوب ؟

قال لها : تفضلى انظرى (الفاتورة) ثم عدى الفلوس .

فلما أعادت النظر في القائمة وجدت أن المطلوب ستون غرشاً ، ثم عدت الفلوس فوجدتها ثمانين غرشاً ، والصبي يضحك ، والسيدة تنظر إليه نظرة اعتبار واحترام ، للملكة الصدق والاستقامة والأمانة التي وجدتها في نفس هذا الصغير ؛ ثم أخذت منه المبلغ وشكرته على أمانته وقالت له : لقد أحسنتَ إليَّ ياصبي أحسن الله إليك .

« باختصار عن جريدة الأهرام »

في يوم السبت ١ نوفمبر سنة ١٩٢٨

فضيلة السخاء

السخاء فى العمل النافع *

يروى أن سيدنا عثمان لما رأى أن رسول الله ﷺ يريد غزو الروم (غزوة تبوك) وليس فى بيت المال مايفى بتجهيز (جيش العسرة) تبرع رضى الله عنه بتجهيز غالبه من ماله ، فجهز ألف بعير ، وسبعين فرساً وصرف عشرة آلاف دينار ، فدعا له الرسول وقال : « لا يضر عثمان ماعمل بعدها . اللّهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » .

مثال آخر فى سخاء سيدنا عثمان (رضى الله عنه)

وقع قحط بالمدينة فى خلافة سيدنا أبى بكر الصديق فتوقع الناس الهلاك، فوردت لسيدنا عثمان إبل من الشام عليها القمح والزيت والزبيب وكانت ألف بعير ، فأدخل أحمالها إلى داره ، وجاءه التجار وسألوه أن يبيعها إليهم فقال لهم: كم تعطوننى ربحًا ؟

قالوا : نعطيك عن كل درهم خمسة دراهم .

فقال : أريد عن كل درهم أزيد من عشرة .

فقالوا : هذا غبن فاحش .

قال : إن الله وعدنى بأن يعطينى عن كل درهم عشرة بقوله تعالى :

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » فهل عندكم زيادة ؟

قالوا : لا .

قال : اشهدوا أنها صدقة ، ثم فرقها على فقراء أهل المدينة .

أحاديث فى السخاء

١ ـ كان (خالد بن عبد الله القسرى) سخياً ؛ فكتب إليه أحد أصحابه يحثه على الإمساك ، ويخوفه من غدر الدهر ، فأجابه بقوله : خوّفتنى مما تجوز السلامة منه ، ونهيتنى عما أوجب الحق فعله ، وما أنا ممن يترك الحق الواجب لما خوف منه الظن .

٢ ـ كان (محمد بن المعمر) جواداً سخياً ، فمرّ به أعرابى ورأى فى أصبعه خاتماً،فسأله إياه ، فأعطاه له وقال : احتفظ بفصه يا أعرابى ، فإن ثمنه علىّ مائة دينار ، فمضغ الأعرابى الخاتم ، وقلع الفص ، وردّه إليه وقال : دونك الفص فإن الفضة تكفينى . فقال له : أنت والله أجود منى .

٣ ـ قيل : أن أخت (حاتم الطائى) السخىّ المشهور كانت سخيّةلاتبقى شيئاً ، فحظر عليها إخوتها وحبسوها حتى ذاقت طعم الجوع والفقر ، فظنوا أنها تمسك بعد ذلك لما أصابها ، فأطلقوها ودفعوا إليها مالاً ، فأتتها سائلة فأعطتها المال وقالت : لقد قاسيت من الجوع مالا أمنع بعده سائلاً وأنشدت:

« لعمر أبى قد عضنى الجوع عضةً   فآليت ألّا أمنع الدهر جائعاً »

٤ — قيل : أن ابن (جذعان التميمى) كان سخيًّا فلما أسنّ منع قومه عنه المال فكان إذا جاء سائل يقول له : ادن منى ، فيدنو فيلطمه و يقول : اطلب من قومى قصاص لطمتى، ولا تقبل منهم إلا كذا مالاً ، فيضطر قومه لإعطاء المضروب ما طلب .

٥ — قال أحد الأفاضل : كنا فى البادية فى طريق مكة ، فاشتاقت نفوسنا إلى اللحم ، فرأينا أعرابية معها شاة فقلنا : بكم هذه الشاة ؟ فقالت : بخمسين درهما .

فقلنا لها : أحسنى . فقالت : بخمسة دراهم . فقلنا لها : أتهزئين ؟

فقالت : لا والله ، سألتمونى الإحسان ، ولولا الحاجة ما أخذت شيئا فهزتنا أريحية العطاء ، فأعطيناها ستمائة درهم ، وتركنا لها الشاة .

٦ — كان (يزيد بن المهلب) القائد العربى المشهور جواداً سخياً . حكى عنه : أنه حج فدعا بحلاق لحلق رأسه، فأعطاه ألف درهم . ففرح الرجل وقال : أذهب إلى أهلى وأبشرهم . فقال : اعطوه ألفاً أخرى ، فطار عقله فرحاً وقال والله لا أحلق رأس أحد بعدك . فقال : أعطوه ألفين آخرين ليكون ذلك رأس مال له ليشتغل فيما شاء .

وسأله مرةً أعرابى ؛ فقال لغلامه : أعطه ما معك . فقال : معى مائة دينار ، وأنه يرضيه منها اليسير فقال : أعطه إياها ، فأنا لا يرضينى إلا الكثير .

فقال : إنه لا يعرفك .

فقال : أنا أعرف نفسى .

مساعدة الضعيف ولو كان عدواً

حكاية صلاح الدين ومساعدته لعـدوّه

يحكى أن صلاح الدين الأيوبى لما أسر ملك الافرنج (جفرى) وأخاه فى واقعة (حطين) فى سنة ٥٨٣ هـ مع البرنس (ارناط) صاحب (الكرك) أمر بإحضارهم .

وكان (ارناط) هذا اللعين كافراً عظيماً ، وجباراً شديداً ، وكان قد اختازت به قافلة من مصر حينما كان بين المسلمين و بينهم هُدنة ، فغدر بها ، وأخـذها ونـكل بهم وعذبهم ، وأسكنهم المطامير ، والحبوس الحرجة ، وذكروا له حديث الُهدنة فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم .

فلما بلغ السلطان (صلاح الدين) رحمه الله ذلك عنه ، حمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله بنفسه . فلما أمكنه الله منه فى ذلك اليوم قوى عزمه على قتله وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك وأخيه . فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحاً من جلاب مثلج ، فشرب منه ، ثم ناوله (ارناط) فقـال السلطان للترجمان : قل للملك ، أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما أسقيه من شرابى ، ولا أطعمه من طعامى .

وكان على عادة جميل العرب ، وكريم أخلاقهم ، أن الأسير إذا

أ كل أو شرب من ماء من أسره أمن بذلك جريا على مكارم الأخلاق .

ثم أمرهم بالمسير إلى موضع عينه لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم ، وأقعد الملك فى الدهليز واستحضر البرنس (ارناط) وأوقفه على ماقال ، وقال له : هأنا أنتصر لمحمد (عليه الصلاة والسلام) ثم عرض عليه الإسلام فلم يقبل ، ثم سل خنجره وضرب عنقه ، وأخذه ورمى به على باب الخيمة .

فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثنى به فاستحضره وطيب قلبه ، وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فقد تجاوز حده فجرى له ماجرى .

ثم أخذ (عكا) وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على مافيهامن الأموال والذخائر والبضائع ،وأعطى كل أسير نفقة يصل بها إلى بلده وأهله .

فهذا مثل من مروءته ومساعدته للضعفاء .

إرسال صلاح الدين الثلج إلى خصومه فى الحرب*

يحكى أنه لما وصل ملك فرنسا (فيليب أغسطس) إلى (عكا) فى يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٥٨٧ هـ ١٩ إبريل سنة ١١٩١ م ومعه عدد من الجنود ليس بالقليل قوى أمل الافرنج ، وشدّ من عزيمتهم ، وأخذوا يعملون لمضايقة المدينة ، ثم تبعه ملك الإنجليز (رتشارد قلب الأسد) يقود أسطولاً . فلماوصل

إلى مياه جزيرة (قبرص) تخلف بجزء من الأسطول للاستيلاء على الجزيرة، وفعلاً تم له ذلك، وسار الجزء الآخر يقصد (عكا)

لكن أساطيل المسلمين فى بيروت التقت معه فى البحر وأوقعت به.

ثم تحرك (رتشارد) نحو (عكا) فوصلها يوم ٣ رجب سنة ٥٨٧هـ ٢٨ يوليو سنة ١١٩١م فصادف سفينة للمسلمين بها عدد كبير فقاتلها حتى كاد يستولى عليها فعمد ربانها إلى إغراقها، فخرقها، وبذلك غرقت بمن فيها وبما فيها، وكانت خسارة كبيرة على (عكا) لاحتياجها إلى الرجال والقوت.

وفى هذا الوقت مرض ملك الإنجليز وملك الفرنسيس، فأرسل إليهما صلاح الدين ثلجاً وشراباً بارداً، وفواكه وغيرها، وظل على هذا مدة مرضهما.

وهذا مثل آخر من شفقته، ومساعدته للضعيف.

مثال آخر

من شفقته ومساعدته للضعيف

يحكى أن صلاح الدين أرسل طبيباً ومعه بعض الأدوية لمعالجة الملك (رتشارد قلب الأسد) من مرض الحمى الشديد الذى أصابه، فلما وصل الطبيب طلب من الحاجب الإذن لمقابلة الملك فقال له: إنه نائم، ولا يمكننى إيقاظه، ثم سأله عن سبب مجيئه.

فأجابه: إن السلطان صلاح الدين أرسلنى لمعالجته. فقال: أطبيب العدو

يشفى الملك من السقام؟ ارجع أيها الطبيب بسلام . ولو جاء صلاح الدين نفسه ماأيقظت الملك ، فكيف أوقظه لأجل رسوله ؟

فأجابه الطبيب : أيها الحاجب ، اعلم بأن القوم لم يعجزوا عن قتالكم ولكنهم كرام أخلاق ، يريدون نفعكم ، وشفاء مليككم ، فادخل على مولاك واستأذن لى بالدخول ، عسى أن يكون شفاؤه على يدى ، ونجاحى على يديه ، عجباً إنى أريد شفاء ملككم وأنتم لاتريدون !

إن ذلك لعار عظيم عليكم ، ولا شك أنكم تخافون ، فأنتم إذن لاتستحقون النعمة ؛ وقد أخطأ مولاى صلاح الدين فى أنه أرسلنى إليكم .

فقال له الحاجب : نحن لانخاف على نفوسنا ، ولكننا نخاف على ملوكنا ، أكثر مما نخاف على رءوسنا .

فسمع الملك هذا الحديث وقال : من الذى يتكلم ؟ أنت تريد أيها الحاجب أن توقظنى لأتعذب وأتألم ؟

قال له : لا يامولاى ؛ بل هذا طبيب أرسله السلطان إليك ، وقد أمضى مدة يريد أن يراك وأنا أمنعه من الدخول عليك .

قال الملك : أيرسل إلى صلاح الدين ثم تمنعه من الدخول ؟ ادخل أيها الطبيب إلىّ هنا ، تعال أيها الرسول ، قد بلغنى عن سلطانكم كل مروءة وشهامة ، فهو يستحق كل إكرام ، ويستحق رسوله كل كرامة ؟ أنت تشفينى من دائى ، وأنت طبيب عدوى الألد . هل فعل هذا الفعل سلطان من قبل ؟

وهل بلغت المروءة هذا الحد ؟ ولـكن من يضمن لى أنك صادق فى دعواك ؟

قال الطبيب : يضمن لك ذلك قدومى إليك،وأنا عدوك تخشانى وأخشاك، وأنت تعلم أن مولاى صلاح الدين صادق لا يكذب ، وأنه لا يخشى من قتالك، ولا يحتاج أن يسقيك السم فى الشراب ، ولـكنه يريد أن تشفى ، لتـكون خصمه فى النزال ؛ لأنه يأسف عليك أن تموت على فراشك ، ولا تموت فى النزال ، موت الرجال الأبطال .

قال الملك : صدقت أيها الطبيب ، ذلك ماقاله السلطان لديك .

تقدم وافعل ما تريد أيها الطبيب ، ليس ذلك حال من يسم الأمراء .

ثم قال لحاجبه: إذاشفيت كافأت هذا الرجل،وإن مت فلا يطالبه أحد بدمى

الطبيب : بعد أن هيأ الدواء قدمه للملك ، وقال له : اشرب يامولاى هذه الـكأس من الدواء ، والله الشافى من كل داء .

المحافظة على الوقت

الوقت ثمين جدًّا ، و إذا مضى لا يعود ، وجاء فى الأمثال : الوقت من ذهب، فإذا أضعت منه شيئاً فكأنك أضعت جزءاً من مالك . فإن كنت تكسب ريالا مثلاً فى اليوم ، وتركت الشغل يوماً واحداً ، فكأنك خسرت هذا الريال .

ولقد أصاب صفى الدين الحلى حيث قال :

« حياتك رأس المال والعلم ربحه   وأخلاق أشراف بهن تصدر »
« وموسمك الأيام خلتك حازماً   وإلا فذو التفريط لا شك يخسر »
« ومن ضيّع الأوقات ضاعت حياته   وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكر »
« ودع غائبـاً من فائت ومؤمل   فوقتك سيف قاطع ليس يعـذر »

حقا إن الوقت كالسيف القـاطع إذا لم تقطعه بالأعمال النـافعة قطعك بالأسى والأسف ، ومن المعلوم أن الحياة جهاد وكد ؛ فلكل يوم من أيام حياتك عمل فإذا لم تعمل فى يومك ضاعت عليك فائدته .

وقال أحد الشعراء :

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى غد إن يوم العاجزين غد »

وجاء فى الحكم : لا تؤجل إلى الغد ماتقدر أن تعمله اليوم ، لأنك إذا أخرت عمل يوم إلى يوم آخر اجتمع عندك عمل يومين فيصعب عليك القيام بهما ؛ أما إذا أمضيت فى كل يوم عمله أرحت نفسك وا كتسبت قيمة وقتك

أوقات الصلوات الخمس المفروضة *

وتحريم تأخيرها عن وقتها

اعلم أن الصلاة أعظم العبادات شأناً ، وأوضحها برهاناً ، وأشهرها فى الناس ، وأنفعها فى النفس ، ولذا اعتنى الشارع ببيان فضلها ، وتعيين أوقاتها فخصص لها خمسة أوقات وهى :

(١) وقت الصبح ، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (٢) ووقت الظهر تحول الشمس (٣) ووقت العصر ، أن يصير ظل كل شىء مثله (٤) ووقت المغرب ، غروب الشمس (٥) ووقت العشاء مغيب الحمرة التى تظهر بعد غروب الشمس .

ولا شك أن معرفة هذه الأوقات ضرورية لكل واحد بدون أدنى كلفة سواء العالم أو الجاهل ، وقد قال تعالى : « وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ . وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

وتشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى بيان أوقات الصلوات الخمس وذلك لأن قوله تعالى : « وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ » معناه وأدّ الصلاة فى أول وقتها على تمامها طرفى النهار ، أى فى الغداة والعشية ، فصلاة الغداة الصبح ، وصلاة العشية الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال إلى الغروب عند العرب عشىّ وقوله : (وَزُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ) أى ساعات قريبات من الليل ، والصلاة التى تصلى فيها هى المغرب والعشاء .

وقد بين سبحانه وتعالى مالهذه الصلوات الخمس من الفضائل والفوائد حيث قال «إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ» أى إن الصلوات الخمس يذهبن السيئات أى يكفرنها ، ويذهبن المؤاخذة عليها ، والمراد بالسيئات الذنوب الصغائر .

ثم بيّن فضل الصبر ومزيته ، فقال : واصبر أى امتثل ما أمرت به ، وانته عما نهيت عنه « فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى يوفيهم أجورهم .

وقد حث الله على المحافظة على الصلوات الخمس ، والمداومة على أدائها فى أوقاتها من غير إخلال ، وخصوصاً الصلاة الوسطى ، وهى صلاة العصر على أصح الأقوال بقوله : « حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ » .

ثم حثّ جل شأنه على مراعاة الخشوع ، وطول الركوع ، وغض البصر ، وعدم الالتفات وعدم العبث بشىء ، فقال: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» أى مكملين لها.

وقد حرّم الله تأخير الصلاة وبين جزاء من يؤخرها عن أوقاتها المعينة بقوله : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » .

فبيّن فى هذه الآية الكريمة ما أعده الله من العقاب الأليم ، والعذاب الشديد ، لمن سها عن صلاته وغفل عنها .

حكايات وأمثال فى الشجاعة

شجاعة الرسول عليه الصلاة والسلام

كان ﷺ شجاعاً مقداما ، حضر المواقف الصعبة ، وفرّ الكماة والأبطال عنه ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح .

قال علىّ رضى الله عنه : إنا كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه .

وحكى : أن النبى ﷺ أتاه رجل (أُبىّ بن خلف) فى (غزوة بدر) وصار يقول : أين محمد لأقتله ؟ وهجم على النبى ﷺ فحالت الصحابة بينهما فنهاهم ﷺ وقال : اخلوا سبيله .

ثم تناول حربة من بعض الصحابة وضرب بها (أُبيًّا) فخر صريعاً ، ولم يقتل ﷺ غيره طول حياته

مثال من شجاعة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه

إنه لما كانت (غزوة الخندق) طلب عمرو بن ودّ المبارزة وقال : مَن يبارز؟ فقام علىّ رضى الله عنه وقال : أنا له يانبى الله ، فقال ﷺ : اجلس إنه عمرو ، وطلب عمرو البِراز مرتين أخريين ، وفى كل ذلك يقوم علىّ رضى الله

عنه والنبي ﷺ يقول له : اجلس إنه عمرو ، فقال عليّ كرم الله وجهه : وإن كان عمراً ، فأذن له رسول الله ﷺ وأعطاه سيفه ، ورفع عمامته إلى السماء ودعا له ، ثم برز عليٌّ كرم الله وجهه لعمرو فما عرفه عمرو ، لأنه كان مقنعاً بالحديد ، فقال له : مَن أنت؟ فأجابه، وقال : عليٌّ ،قال: ابن عبدمناف؟فقال: عليٌّ بن أبي طالب ، فقال : غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أشد منك، فإني أكره أن أهريق دمك ، وإن أباك كان صديقاً لي ، فقال له عليٌّ كرم الله وجهه : أنا والله ما أكره أن أهريق دمك ، فغضب عمرو ، فقال له عليّ : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معي ، فاقتحم عن فرسه وسلّ سيفه ، فعقر فرسه ، وضرب وجهه ، كيلا يفر ، وأقبل على عليّ رضى الله عنه، ودنا أحدهما من الآخر فاستقبله عليّ (بدرقته) فضرب به عمرو فيها فقدّها ، وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه،فضرب به عليّ على حبل عاتقه ، فسقط وكبّر المسلمون . فلما سمع رسول الله ﷺ التكبير عرف أن عليًّا كرم الله وجهه قد قتل عمرا .

(السيرة النبوية)

مثال آخر من شجاعته رضى الله عنه فى غزوة خيبر

لما كانت (غزوة خيبر) نزل رسول ﷺ بالمسلمين على حصن من حصونها وصار يبعث كل يوم رجلًا يقاتل ، فلم يفتح عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، كرّاراً غير فرّار فدعا عليًّا رضى الله عنه ، وهو أرمد ، فتفل فى عينيه ، ثم قال . خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ، ودعا له ومن معه بالنصر ، فخرج علىّ رضى الله عنه يهرول ، حتى ركزها تحت الحصن ، ثم خرج إليه أهل الحصن ، فبرز له فارس فقتله ، وانهزمت اليهود إلى الحصن ، ثم خرج إليه أخو المقتول غارقاً فى لامته ، ثم حمل على علىّ كرم الله وجهه وضربه فطرح ترسه من يده ، فتناول علىّ رضى الله عنه باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه ، وقتل خصمه . ولم يزل يقاتل والباب فى يده حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده وراء ظهره ، وكان طول الباب ثمانين شبراً ، ولم يحركه بعد ذلك سبعون رجلاً إلا بعد جهد ، ففيه دلالة على فرط قوة علىّ ، وكمال شجاعته رضى الله عنه .

(السيرة النبوية)

خالد بن الوليـــــد

مثال الشجاعة والحزم

كان من أعاظم القواد الذين ظهروا فى صدر الإسلام ، وأسلم على يد الرسول ﷺ وقد امتاز بصفات الجنـدية التى تلازمها شدة المراس والحزم وعنفوان الشجاعة ، وحضر معظم الوقائع فى حروب صدر الإسلام ، فغلب

الروم ، ودوّخ الفرس ، وفتح الشام والعراق ، وضرب على أيدى المرتدين عن الإسلام من قبائل العرب،وأعادهم إلى طاعةالله والخضوع لشوكةالإسلام. وقد سُمِّى (سيف الله المسلول) فقد كان موفقاً للنصر فى كافة وقائعه ؛ فإن التاريخ لم ينبيء عن خذلانه ، ولا فى وقعة واحدة من وقائعه . وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة ، والبصر بأمور الحرب ، وسياسة الجيوش . فقد كان دائم اليقظة لحركات العدو ، يترقب الفرص ، ويسدد سهم الفكر إلى الغرض البعيد فلا يخطيء مرماه .

وبالرغم من حدة طبعه ، وشدة بأسه ، فإن جنوده تعلقوا به ،وأخلصوا فى محبته ، فكانوا يطيعونه طاعةً عمياء، ويستميتون بين يديه، ويتمنون وجوده فى طليعتهم ، مع أن فيهم من الصناديد والأسود كعمرو بن العاص وأبى عبيدة ابن الجراح وأضرابهم من حماة الإسلام وقادة الجيوش العظام .

وقد مات رضى الله عنه ، وهو فى فراشه . ولما حضرته الوفاة قال :

لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها،ومافى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى مِن (لا إله إلا الله) وأنا متترس بها .

ذلك هو خالد بن الوليد ، وتلك هى نفسه العالية ، لم يطق الموت على فراشه ، ولم يرض لنفسه أن يتجرع كأس المنية فى غير مواطن الضرب

والطعان ، ولا غرابة فيما تمناه فإن جسماً ليس فيه موضع شبر إلا وفيه طعنة أو ضربة ، ليحمل نفسًا عالية ، وعزة شماء .

(تهذيب السير ص ٨٦)

تحريض خالد بن الوليد

على القتال فى (أجنادين)

يا معاشر الناس ، انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا فى سبيل الله ، واصبروا على قتال أعدائكم ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ودينكم ، وليس لكم ملجأ تلجأون إليه ، ومكمن تكمنون فيه ، فاقرنوا المناكب ، وقدموا المضارب ، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ، ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من أكباد القسي كأنها تخرج من كبد قوس واحد ، فإنه إذا تلاحقت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب .

« اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

واعلموا أنكم لاتلقون عدوًّا مثل هذه الفئة حماتهم وأبطالهم وملوكهم .

خطبة خالد بن الوليد

فى جمع من أمراء المسلمين حين قتاله الروم

قال ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه

البغى ولا الفجر ، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم؛فإنهذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فإن هذا لا يحل ولا ينبغى .

إن من ورائكم ، مَن لو يعلم علمكم ، حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » .

قالو : هات ، فما الرأى ؟

فقال : يؤمر على الجيش كله أمير واحد ، ويتبادلوا الإمارة حتى يؤمروا كلهم ، وأن يؤمر هو فى اليوم الأول .

فقبلوا مشورته .

مثال الشجاعة والإقدام

خرج رمضان وسليمان يتمشيان فرأيا معركةً فى الطريق ، وطلب سليمان من رمضان أن يقف معه ليريا ما يكون من أمرها ، فأبى رمضان إلا متابعة السير خوف أن يلحقهما أذى ، وليس لهما دخل فيها ، فألح سليمان على رفيقه الذى مازال مصراً على متابعة السير ، فغضب سليمان ورمى رمضان بالجبن وافترقا

وبعد ذلك صار سليمان وبعض خاصته يسخرون من رمضان ويعيرونه بالجبن ولكن رمضان تحمل أذاهم بالصبر الجميل لعلمه أنه ليس من الشجاعة أن يُلقى المرء بنفسه فى التهلكة على غير طائل ، وستظهر الأيام مبلغ شجاعته يوما ما .

وبعد ذلك بأيام اتفق أن سليمان كان يستحم مع رفاقه ، وتجاور حد منطقة الاستحمام ، فتعب وصار يغطس ويطفو ، ويصرخ مستغيثاً بإخوانه الذين كانوا مثله يتباهون بشجاعة ليست فيهم ، ولكنهم تركوه وهربوا

ولما رأى رمضان وهو على الشاطئ ما حلّ بسليمان ، خلع ملابسه بغاية السرعة ، ووثب فى الماء وسبح ، وخاطر بنفسه ليخلصه ، وبعد الجهد العظيم أخرجه سالماً .

وبهذا العمل خجل سليمان ورفاقه من تعديهم على رمضان واعترفوا له بأنه أكثرهم شجاعةً وإقداماً . « القراءة الرشيدة »

الشجاعة وحسن الحيلة

ذكروا أن الهادى ركب حماره ، وسار فى بستان له ولا سلاح معه ، ومعه بعض حاشيته ، فظفر القواد بخارجى له بأس ومكايد ؛ ولما علم الهادى أمر به فأدخل بين اثنين قد أمسكا به ، فلما رأى الهادى أفلت منهما ، واختطف سيف أحدهما ، وقصد الهادى ، ففرّ الحاضرون ، وثبت الهادى مكانه ، حتى دنا منه الخارجى وهمّ أن يضرب به بالسيف ، فأشار الهادى وراء الخارجى وقال : ياغلام اضرب عنقه ، ولم يكن هناك غلام ، فالتفت الخارجى خلفه ، فنزل الهادى مسرعاً ، وقبض على عنقه ، وانتزع السيف منه وقتله به ، ثم ركب حماره ،

فجعل الفارون يرجعون ، وقد ملئوا خوفاً ورعباً فلم يعاتبهم ، والتزم السيف ، وركوب الخيل ، حتى قضى نحبه من هذه الدنيا .

(ثمار الإنشاء)

مثال الشجاعة والصبر

سافر (عمرو بن العلاء) إلى الخليفة (هشام) فأصابت رجله فى الطريق عظمة ، فما وصل إلى الشام ، حتى سرى الفساد فى رجله سريان السُّم فى الأجسام ، وأحضر الخليفة الأطباء فقرروا البتر (القطع) إن أراد الشفاء ، فعرضوا عليه مرقداً فقال : ما أحب أن أغفل عن ذكر الله أبداً ؛ فلما بتروها قال ، وقد رفع بصره إلى السماء : اللّهم إن كنتَ أخذت منى عضواً ، فقد بقى لى أعضاء .

وما كاد ينتهى من هذا المقال ، حتى جاءه أن ولده سقط من السطح فمات فى الحال ، فرفع بصره إلى السماء ثانياً وقال : اللهم إن كنت أخذت لى ابناً ، فقد بقى لى أبناء ، فلك الحمد على الضراء والسراء .

شجاعة أعرابية

شبت نار الحرب بين قبيلتين من قبائل العرب ، فأرسلت أعرابية ولديها للدفاع عن قبيلتها ، و بعد أسبوع جاء رسول من محل الموقعة فسألته عما تم . فأجابها : قُتل ولداك .

فأنّبته ، وقالت له : تَبًّا لك من جبان ، وتبًّا لما وراءك من الأخبار ، لم أسألك عن ولدىّ ، فقال : قد انتصرنا .

فعند ذلك تهلّل وجهها فرحاً ، وخرّت ساجدةً ، وشكرت الله

شجاعة فتاة

كانت فتاة ماتت أمها ، وتركتها فى حضانة أبيها ، وهو عامل فى سكة حديد ، يشرف عليها بيته ، فوقفت يوماً على الباب بعد الغروب تنتظر عودة أبيها ، وتتسلى برؤية القطر ، وهى آتية ذاهبة ، فرأت ضوء قطار بضاعة آتياً بسرعة ، ثم اختفى ولم تدر لذلك سبباً ، لعلمها أن الطريق مستقيمة ، وليس هنالك ما يحجب الضوء عن الأبصار ، فذهبت إلى مكانه لتنظر ماقد جرى فوجدته قد هوَت به القنطرة فوقع فى النهر . وكانت الصبية تعلم أن قطار الركاب يأتى بعده بساعة ، وليس لأحد علم بسقوط القنطرة حتى يوقفه ، فدفعتها المروءة إلى الذهاب إلى المحطة ، وإعلان الخبر ، رغم ما يصادفها من الأخطار ، فجرت الفتاة فى الظلام ، حتى أدركت قنطرة أخرى ليس لها تفاريج على جانبيها ، وكانت الريح عاصفة شديدة ، فمشت مكبة على يديها ورجليها ، خوف أن تقذفها الريح إلى النهر ، ثم اعتدلت عندما عبرتها وأسرعت الجرى إلى أن بلغت المحطة ، وقد نهكها الكدُّ ، وأضناها التعب ، فصرخت قائلةً : أوقفوا القطار ؛ ثم سقطت مغشيًّا عليها ، فأكبر الناس عملها ، وحملها بعضهم إلى بيتها ، وأوقف القطار قبل أن يبلغ مكان القنطرة ، فنجا الركاب بهمة هذه الفتاة الصغيرة ، واكتتبوا بمبلغ من المال وأهدوه لها ، مكافأةً على مروءتها وشجاعتها

« القراءة الرشيدة »

مختصر سير الخلفاء الراشدين

١ — سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه

سيرته وأخلاقه وفضائله

هو خليفة رسول الله ﷺ أيام مرضه ، وصهره ووزيره . وهو عبد الله ابن أبى قحافة عثمان بن عمر ، واسم أمه سلمى أم الخير بنت صخر بن عامر ، و يلتقى مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى جَدِّه مُرّة بن كعب .

وُلد بعد مولد الرسول بسنتين وأشهر ، وشبَّ على الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة ، من الحلم والتواضع والصدق والأمانة .

وكان ذا هَيْبة ووقار عند العرب، لحرمته وفضله ، محبباً فيهم ، مقدماً عند قريش فى الرأى والمشورة ، ذا إحسان كبير ، ومروءة تامة ، ومال جزيل ، صرفه فى وجوه الخير ومصالح المسلمين ، وكان أعلم أهل زمانه بالأنساب ، حتى كانت العرب تدعوه (عالم قريش)

وكان يَصل الرَّحم ، و يصدق الحديث ، و يكسب المعدوم ، و يعين على نوائب الدهر ، و يقرى الضيف .

وكفاه فخراً أنه حاز شرف الصحبة مع رسول الله ﷺ بنص القرآن : « ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » وأنه صلى بالمسلمين إماماً فى مرض الرسول ﷺ وصحبه فى جميع الأحوال؛ وأنه

أول من آمن بالرسول وصدّق من الرجال، وأجاب دعوة الإسلام من غير تردد، فأجمعت الأمة على تسميته (بالصديق)؛ لأنه بادر بتصديق الرسول، ولازم الصدق في جميع أحواله ؛ وأن الرسول قال فيه :

« إن مِن أَمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر . وَاساني بماله، وزوّجني ابنته ، وصحبني في الغار ، ولو كنت مُتخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر ».

خلافته وأعماله

لما ولى الخلافة، قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بوظيفة الإمامة من حراسة الدين ، وكفاية الأمة ، وصيانة الشرع الشريف ، فلم ينحرف عن شيء لا يمنةً ولا يسرةً ، وسار وكتاب الله يقوده ، وسنة رسوله تحوطه .

قام خطيباً يوم تمت مبايعته فقال :

« أيها الناس، قد وُلّيتُ عليكم، ولستُ بخيّركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى ، حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى ، حتى آخذ الحق منه ـ إن شاء الله ـ لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » .

وأول عمل بدأ به أبو بكر أنه سيَّر الجيش الذى كان الرسول جهزه لغزو

الروم وأمّر عليه (أسامة بن زيد) كما كان الرسول فاعلًا وعمر أسامة يومئذ ١٧ سنة (لأن قيمة الرجال بأعمالهم لا بسنهم) .

وكان بعض الصحابة أشار على الصديق بإرجاع جيش أسامة الذى كان متهيئًا خارج المدينة للسفر قبل وفاة الرسول ﷺ فلم يرض أبو بكر وقال : لا أحل لواء عقده النبي ﷺ فخرج أسامة على رأس هـذا الجيش راكبًا ، وأبو بكر بجواره ماشيًا يودّعه ويوصيه بقوله :

« لا تخونوا ، لا تغدروا ، لا تقتلوا طفلًا ولا شيخًا ، ولا امرأة ، واصنعوا ماأمركم به الرسول ، ولا تقصروا ، ولا تغرقوا نخلًا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا للأكل » (إلى آخر ماجاء بهذه الوصية الدينية الثمينة) المذكورة فى سيرته المطولة .

فساروا حتى التقوا مع الروم ، وقاتلوهم وانتصروا عليهم ، ثم رجعوا ظافرين غانمين بعد ٤٠ يومًا ، فعظم شأن أبى بكر عند الأمة، وعلموا أن مخالفة البعض له فى أمر هذه الغزوة لم تكن من الحكمة .

وبعد وفاة الرسول المكرم ارتدّ بعض قبائل العرب ، ومنعوا الزكاة ، فأخذ أبو بكر فى تذليل مَن امتنع عن أداء الزكاة ، وقمع مَن ارتدّ عن الإسلام

ادعى النبوة رجل من أهل نجد اسمه (مُسيلمة الكذاب) وتزوّج بامرأة ادّعت النبوة أيضًا اسمها (سجاح) فأرسل إليهما الصديق خالد بن الوليد

وحاربهما حربًا شـديدةً فى بلاد اليمامة فقتـل مسيلمة .

ثم وجَّه سيدنا خالداً بالجيوش إلى العراق لمحاربة الفرس ، ووجَّه سيدنا أبا عبيدة إلى الشام لقتال الروم . وبعد أن فتح سيدنا خالد مدينتى (الحيرة والأنبار) وغيرهما من مدن العراق ، وهزم الفرس هناك مراراً صدر له الأمر بالتوجه إلى الشام لمساعدة أبى عبيدة ، فسار إليها ومعه نصف جيشه ، وبوصوله رتب الجيوش الذين قاتلوا قتالًا شديداً ، حتى هزموا الروم فى واقعة (اليرموك) وهى من أعظم الوقائع الإسلامية .

ثم فتحوا مدناً كثيرةً ، غنموا منها أموالًا عظيمةً ، وبذلك ظهر الإسلام ظهوراً بيناً ، ووقع الرعب فى قلوب أعدائه ، وخافوا خوفاً كبيراً .

ثم لما استشهد فى تلك الوقائع كثير من حَفَظَةِ القرآن أشار سيدنا عمر على أبى بكر بجمعه ، فى صحائف من صدور الرجال والجلود والعظام . فكان عنده مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر وزوجة رسول الله ﷺ فبذلك خدم الإسلام خدمةً عظيمة بجمع القرآن الكريم .

ولما اشتد المرض بسيدنا أبى بكر ، جمع أكابر الصحابة واستشارهم فى أن يكون سيدنا عمر خليفة بعده ، فتمت كلمتهم عليه ، فعهد له بذلك ، وأوصاه بالمسلمين خيراً

ثم توفى رضى الله عنه فى أواخر جمادى الآخرة سـنة ١٣ هجرية وعمره ٦٣ سـنة ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، ودفن بجوار رسول الله ﷺ تغمده الله بالرحمة والرضوان .

وقيل : قد توفىٰ مسموماً وقيل : محموماً .

توفىٰ الصديق ، ولم يجدوا عنده من مال الأمة إلا ديناراً واحداً كان قد سقط من كيس، فكان رحمه الله لا يبقى عنده من مال الله شيئاً ؛ بل كان قد خرج من ماله كله لله .

وكان يتجر فى أثناء خلافته ليقيت نفسه وأولاده ، ولكنه اضطر لترك التجارة لما رآها أنها تشغله عن مهام الدولة ، وفرض لنفسه مالًا معيناً من بيت المال ، فلما دنا أجله أوصىٰ أن تباع أرض كانت له ، وأن يدفع ثمنها مقابل ما أخذه من مال الأمة .

ومات (رحمه الله) وليس له غير ثوبين أوصىٰ أن يكفن فيهما .

فهكذا تكون الصداقة والأمانة وعزة النفس ، وكان آخر ماتكلم به .

أبو بكر : « اللّهم توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .

٢ — أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب رضى الله عنه

سيرته وأخلاقه وفضائله

سيدنا عمر بن الخطاب بن نُفَيْل الملقب (بالفاروق) يجتمع مع الرسول ﷺ فى كعب بن لُؤَى ، فهو من أشراف مكة ، وعظماء قريش . نشأ على الشهامة، والنجدة ، والحمية ، وسداد الرأى .

وكان مسموع الكلمة فى قومه ، حتى أن الرسول ﷺ كان يتمنى

إسلامه ، و يقول كثيراً : اللّهم أعز الإسلام بعمر ، فأجاب الله دعوته وهداه إلى الإسلام بعد أن كان من أكبر المعارضين له .

وبعد إسلامه أشار على الرسول بإظهار الدين ، وعدم الاختفاء ، فخرج ﷺ ومعه المسلمون صفين يَؤُمُّ أحدهما سيدنا عمر ، والثانى سيدنا حمزة عم الرسول ، مهللين مكبرين داعين للدين ، جاهرين بالصلاة ، بعد أن كانت لا تفعل إلا سراً ، فببركة دعائه عليه الصلاة والسلام ، كان عمر من أكبر أسباب مَعَزَّة الإسلام فى الفتح والنصر ، والأمان والهجرة .

وكان شجاعاً مهيبًا ، هابته العرب والعجم ، حتى أنه لما أراد الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفية كغيره ، بل جاء إلى الكعبة وحولها صناديق مكة فدخلها وطاف وصلى ثم خرج عليهم صائحاً يقول :

« إنى مهاجر ، فمن أراد منكم أن تثكله (أى تفقده) أمه ، و ييتم ولده ، وتترمل امرأته ، فليقلنى وراء هذا الوادى » وتركهم ، فلم يجسر أحد على أن يلقاه

وكان أقوى النـاس جهاداً فى سبيل الله ، وصبراً على المشاق ، شديد الحرص على حماية الدين ، وحقوق الخلافة والمسلمين ، وفى أقصى درجات العدالة ، والسياسة ، والفراسة ، حتى أن (عمرو بن العاص) لما أراد فتح برزخ السويس (القنال) واستأذنه منعه عمر وقال : أخشى أن الفرنج يكثرون بالمشرق وبلاد المغرب (كما هو حاصل الآن) .

هو أول من سمى بأمير المؤمنين ، من الخلفاء الراشدين ، وأول من وضع

التاريخ الهجرى ، وأول من سجل بالدفاتر أسماء الجنود وأموال المسلمين المجلوبة من الزكاة والجزية والغنائم ، وأول من اتخذ دار المؤن ليعين بها المحتاجين ، وأول من طاف بالليل متفقداً أحوال الرعية ، خصوصاً الضعفاء والعجائز كما يتضح من حكايته مع المرأة العجوز (المذكورة فى باب العدل) وكان شفيقاً رءوفاً ، ومما ثبت فى ذلك أن بعض الولاة دخل عليه وهو يلاعب صبيانه ، فكلمه فى ذلك ، فقال له عمر : كيف تفعل أنت مع عيالك ؟ فقال : إذا دخلت عليهم سكتوا ، فقال له عمر : مثلك لا يصلح للولاية ، لأن من لا يرفق بأهله ، لا يرفق بالرعية ، وعزله من عمله .

وكان شديداً فى الحق ، ويقال : إنه جلد ابنه حتى مات تحت السوط لأنه شرب الخمر .

وكان عمر يلبس المرقع من الثياب ، ويتوسد الحجر فينام على الأرض ، شاهده ملك الروم على هذه الحالة فقال : ياعمر عدلت فأمنت فنمت .

وكان يتفقد شؤون رعيته سرا ليعلم الظالم من المظلوم .

وكان هذا الخليفة بمكان عظيم من العدالة .

خطب ذات يوم وهو على منبر الخلافة فقال :

« أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه .

فقام رجل من وسطِ الجماعة وقال : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف .

فقال : أحمد الله الذى جعل فى هذه الأمة العربية من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » .

وكان رضى الله عنه آية فى الزهد والتقشف ، فقد كان يلبس ثوباً وهو خليفة ، عليه أربع عشرة رقعة ، وقد غنيت الدولة فى عهده غنى لم يكن يدور فى حسبان أحد من ثروة الأقطار الشاسعة التى فتحها ؛ ولكنه مع تدفق الخراج إلى خزائنه ما كان يأخذ منها إلا كما يأخذ أحد المسلمين .

خلافته وأعماله

فى اليوم الذى توفى فيه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بويع لسيدنا عمر ابن الخطاب بالخلافة كما أوصى أبو بكر بذلك ، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام، وفتح الفتوحات الكثيرة ، حتى اتسع نطاق الإسلام اتساعاً عظيماً ،وحصلت فى عهده ثلاث معارك دموية :

(المعركة الأولى) (واقعة اليرموك) فى سوريا ، بين المسلمين والروم ، انتصر فيها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح (أمين هذه الأمة) واستولوا على بلاد سوريا ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، والشام ، وانطاكية ، وماردين .

ولما امتدت الفتوحات إلى بيت المقدس ، وحاصره المسلمون مدة طويلة توجه سيدنا عمر بنفسه إليه ، فصالحه أهله على أن يسلموه بيت المقدس ،وأن يؤدوا الجزية للمسلمين ، وأن يبقوا على دينهم ، فكتب لهم سيدنا عمر عهداً

بذلك ، وسلّمه لعظيمهم ، فأحلّه محلّ الإعزاز والتبجيل ، وقد عمّر بها (مسجد عمر) ولم يزل ذلك العهد عندهم إلى الآن ، تتوارثه الملوك ، ويقال : إنه الآن عند قيصر الروم .

(والمعركة الثانية) ، هى (واقعة القادسية) فى العراق ، حدثت بين المسلمين والفرس ، انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص ، واستولوا على (المدائن) عاصمة الفرس ، وعلى كثير من بلادهم ، وقتلوا قائدهم الأكبر وغنموا أموالا كثيرة ، وأرسلوها إلى سيدنا عمر ، فلما رأى فيها دخائر كسرى ملك العجم ، التى منها التاج ، والمنطقة ، والسوار ، والعلم الأكبر ، والبساط الذى كان ستين ذراعاً فى مثلها ، مرصعاً بالجواهر واللآلىء على ألوان الزهور قال : إن قوماً أدّوا هذا لذو أمانة . فقال سيدنا على : لقد عففت فعفّت الرعية .

(والمعركة الثالثة) ، حدثت فى الإسكندرية ، بين المسلمين والروم أيضاً ، ظفر فيها المسلمون بقيادة عمرو بن العاص الذى افتتح مصر والإسكندرية وما جاورهما من البلاد .

ولما أتم عَمْرو فتح بلاد مصر ، ولّاه سيدنا عمر حاكماً عليها ، فأخذ فى إصلاح شؤونها ، ورفع المظالم المفروضة على الأهالى من الروم ، وبنى مدينة الفسطاط (مصر القديمة) واتخذها مقرّاً لحكومته ، وشيّد بها جامعه المشهور (بجامع عمرو) وهو أول مسجد للإسلام بمصر ، وحفر خليجاً يوصل النيل

بالبحر الأحمر ، وسمّاه خليج أمير المؤمنين . و بذلك زالت دولة الروم عن مصر كما زالت عن الشام .

ومات عمر رضى الله عنه ، فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية ، وعمره ٦٣ سنة ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ، شهيداً بيد (أبى لؤلؤة المجوسى عبد المغيرة بن شعبة) وهو داخل إلى المسجد ليصلى صلاة الصبح ، فكان موته أول مصيبة حلت بالمسلمين بعد موت الرسول ودفن فى الروضة النبوية بجوار الرسول وأبى بكر .

ولما أحسّ عمر بدنو آجله أوصى ابنه أن يرد إلى بيت المال ثمانين ألفاً من الدراهم ، كان اقترضها لبعض أصحابه . فإن لم يف بذلك مال أبنائه أمره أن يأخذه من مال آل الخطاب .

٣ — سيدنا عثمان رضى الله عنه

سيرته وأخلاقه وفضائله

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن أبى العاص ، قرشى يجتمع مع الرسول فى عبد مناف ، نشأ رضى الله عنه محبباً فى قومه ، ذا أخلاق كريمة وسيرة مرضية قويمة ، حتى كان يضرب به المثل فى الحياء والوقار ، وشدة الصبر على عظائم الأمور ، ذا رأى سديد ، وحجة قوية ، ورحمة بالرعية ومن ذوى اليسار والغنى ، كثير الصدقات عظيم البذل ، وكفاه فخراً تجهيزه جيش (العُسرة) من خالص ماله ، وشراؤه بئر رومة (بالمدينة) بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ووقفها على المسلمين وتسبيلها لله ، و بناؤه «مسجد المدينة» بالحجارة مع توسيعه

وعتقه فى كل جمعة عبداً ، وكان من السابقين الأولين ، ومن أول المهاجرين، هاجر الهجرتين : الأولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة ، وصلى إلى القبلتين، وشهد الغزوات كلها إلا غزوة بدر فإنه تخلف عنها بإذن النبي ﷺ ليقوم بتمريض زوجته (رُقية) ابنة الرسول ﷺ التى توفيت فى تلك المدة ، ثم تزوج بعدها أختها (أم كلثوم) ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً، وتلك منقبة عظيمة ، لم تعرف لغيره من الناس قاطبةً ، ولذا سُمى « بذى النورين » وله خصائص جميلة منها : أنه أول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، وجمع الناس على مصحف واحد ، وأمر باستنساخ مصاحف كثيرة وتوزيعها على البلاد الإسلامية ، فخدم الإسلام بذلك خدمةً عظيمةً ، وله أوليات منها : أنه أول من أقطع القطائع ، وخفض صوته بالتكبير ، وخلّق المسجد ، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وأول من فوض للناس إخراج زكاتهم ، وأول من اتخذ شُرطة ، وأول من اتخذ فى المسجد مقصورةً ، مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر .

خلافته وأعماله

بعد وفاة سيدنا عمر بثلاث ليال ، اتفقت كلمة الناس على مبايعة سيدنا عثمان بالخلافة ، فعهد إليه بها ، وسار فيها بالعدل والإنصاف .

ومن أعماله : أنه ولى (سعيد بن العاص) الكوفة ، وأمره بفتح بقية بلاد العجم ، ووالاه بالإمدادات ، حتى فتحها ، وشتت جيوشها ، وقتل الأحنف قائد جيش المسلمين ملكها (يزدجرد) و بقتله انتهت دوله الفرس ، واستجاب الله دعوة نبيه حين مزق كسرى كتابه وهى : «اللهم مزق ملكه كل ممزق»

و بذلك استتب الإسلام فى تلك البقاع . ثم أمر الجيش بالمسير إلى (أرمينية) ففتحها أيضاً .

ومن أعماله : أنه أمر سيدنا معاوية عامله على الشام بإنشاء سفن قوية عظيمة لتحمل جيوش المسلمين إلى ماتريد من الجهات ، فكان ما أمر به ، و بواسطتها فتح جزائر البحر الأبيض المتوسط ، كقبرص ، وكريد ، ورودس ، وغيرها .

ومنها : أنه أمر (عبد الله بن أبى سرح) الذى ولّاه على مصر ، بفتح طرابلس ، وإفريقية ، فسيّر إليها جيشاً تحت قيادة (ابن العوام) ففتحها وغنم منها أموالاً كثيرةً .

وبذلك صارت مملكة العرب من جهة الشرق إلى الهند ، ومن جهة الغرب إلى المحيط الاتلانطيق ؛ ومن جهة الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن جهة الجنوب إلى بحر الهند والنوبة .

وباتصال تلك القوى بعضها ببعض ، عظمت الدولة ، ونمت الثروة ، ونفذت الكلمة ، وتجسمت الهيبة فى قلوب الأعداء ، إلا أنه فى آخر مدته حصلت

فتنة عظيمة وهى : أنه نقم الناس على عثمان رضى الله عنه ؛ لأنه أسند جميع مناصب الدولة إلى أقاربه وذوى رَحِمه ؛ ولأن أقاربه كانوا يسرقون شيئاً كثيراً من بيت المال ، فلا يحاسبهم عليه ، فنفر الناس منه ، وجاء أهل مصر إلى المدينة المنورة ، يطلبون منه عزل أميرهم (عبد الله بن سعد بن أبى سرح) ، بحجة أنه يظلمهم ، فعزله وعين عوضاً عنه (محمد بن أبى بكر الصديق) كما رغب المصريون .

وبينما كان الأمير ذاهباً لمصر مع المصريين ، صادف فى الطريق عبداً من عبيد الخليفة ، على راحلة من إبله يستحثها ، فأوقفوه ، وفتشوه فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم الخليفة لعبد الله بن أبى سرح مضمونه : إذا جاءكم الأمير (فاقبلوه) وكانت الحروف مهملة بدون نقط فقرأها القوم (فاقتلوه) فرجع الجمع إلى المدينة ، وسألوا الخليفة عن ذلك ، فأنكر ، فطلبوا منه تسليم كاتبه (مروان بن الحكم) الذى أغفل الخليفة وكتب ذلك فلم يرض عثمان رضى الله عنه بتسليمه إليهم قبل أن يعلم حقيقة الأمر ، لأن مروان ادعى أنه كتب « فاقبلوه » فلم يصدقه القوم ، وأجمعوا على محاصرته فى داره ، ومنعوا عنه الزاد والماء أياما عديدة ، وهاجت الثوار ، وكثر القيل والقال ، فحافظ عليه كثير من أبناء الصحابة ، ومعهم الحسن والحسين ، أبناء سيدنا على ، رضى الله عنهم فلم يقدر المحاصرون على الدخول عليه من الباب ، فنقبوا جداره من الخلف ، ودخلوا عليه وقتلوه والمصحف بين يديه يتلو فيه (عاملهم الله بما يستحقون)

وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ٣٥ هجرية وعمره ٨٢ سنة ، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة إلا إثنى عشر يوماً ، رضى الله عنه .

ومن خطبه حين ولى الخلافة : الحمد لله ، أيها الناس اتقوا الله ، فإن الدنيا كما أخبر الله عنها لَعِبٌ ولهو ، وزينة ، وتفاخر (الآية) فخير العباد فيها من استعصم بالله وبكتابه ، وقد وكلت من أمركم بعظيم ، لا أرجو العون عليه إلا من الله ، ولا يوفقنى للخير إلا هو ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أُنيب .

٤ — أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه

سيرته وأخلاقه وفضائله

هو علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ قرشى أسلم قبل البلوغ ، ولازم الرسول من صغره ، فاهتدى بهديه ، ولم يسجد طول حياته لغير ربه ، وشهد المشاهد كلها إلا (غزوة تبوك) لأن رسول الله استخلفه فيها على المدينة .

كان محبوباً ، معظما عند جميع الناس ، وفارساً قوياً ، وبطلاً مدرباً عالماً بفنون الحرب وأساليبها ، وله القدم الثابت فى جميع الغزوات .

كان فى جميع العلوم من الراسخين ، ومن الزهاد والعباد المخلصين ، ومن الفصحاء والخطباء المجيدين ، ومن السابقين الأولين .

وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته البتول ، وأبو الحسن والحسين (رضى الله عنه) لقد افتدى الرسول بنفسه ، حيث نام على فراشه ليلة الهجرة ، وخلفه الرسول بمكة مع أهله ، وأنابه منابه فى أداء الأمانات والودائع ، فأقام بعد الهجرة أياماً يؤدى ذلك ؛ ثم أخذ آل البيت وهاجر .

كان أول المسلمين من الصبيان ، وأول المبارزين يوم بدر ، وأول الثابتين يوم أحد وحنين ، وأول السابقين يوم الفتح ، وأول أهل التدبير والسياسة ، وأول أهل الكرم والجود والشفقة والتواضع والحلم ، وأول من وضع قواعد النحو للغة العربية ، وأعطاها لأبى الأسود الدؤلى وقال له : انح هذا النحو يا أبا الأسود .

وكفى بشهادته ﷺ بأنه قال : « أنا مدينة العلم وعلىّ بابها » .

دليلاً على تفوقه فى العلوم .

خلافته وأعماله

بعد موت سيدنا عثمان ، اختلف الناس فى أمر الخلافة ، وتحزبوا أحزاباً ، غير أن الحزب الأقوى ، كان مع سيدنا على ، لتكونه من أكابر الأنصار والمهاجرين وغالب الصحابة المعتبرين .

فلما ذهبوا لمبايعته امتنع ، وقال لهم : أنا لكم وزيراً ، خير منى أميراً .

فألحوا عليه ، حتى قبلها على كره ، وما تخلف عن مبايعته إلا نفر قليل ، منهم مروان ، وبنو أميه ، ولحقوا بالشام عند معاوية ، ومعهم قميص سيدنا

عثمان ، ليطالبوا بدمه ، مع أن سيدنا علياً أخذ يسأل عن عين قاتله ، ويبحث فلم يهتد إلى الحقيقة .

ومن أعماله : أنه بدأ بتغيير بعض الولاة ، خصوصاً من كانوا سببا فى الخروج على عثمان ، ثم أخذ يرتب حكومته على ما يرى فيه الصالح وهدُوّ الخاطر فلم يلبث أن خرج عليه (طلحة وابن العوام) ولحقا بعائشة زوج الرسول ، وحرضاها على المطالبة بدم عثمان ، فانضم إليهم خلق كثيرون ، وساروا بنحو ثلاثين ألف مقاتل إلى البَصرة ، وحاربوا واليها حتى هزموه ، وقبضوا عليه فلما علم سيدنا علىّ بذلك ، سار إليهم فى عشرة آلاف ، وحاربهم محاربة أسفرت عن هزيمتهم ، وعن قتل طلحة وابن العوام رضى الله عنهما .

وكانت عائشة إذ ذاك راكبة فى هودجها على جمل ، فسميت هذه الواقعة (واقعة الجمل) وعند انقضاء الحرب ، قابلها سيدنا علىّ ، وأكرمها وردّها معزّزة مكرّمة إلى المدينة .

ومن أعماله أيضا : أنه ترك (المدينة) واتخذ (الكوفة) مقرا لحكومته وأرسل لمعاوية يدعوه إلى الطاعة ، والدخول فيما دخل الناس فيه ، ويقطع طمعه فى الخلافة ، فامتنع وقال : حتى تقتل قاتل عثمان ، ويختار المسلمون لهم إماماً . وبعد مكاتبات كثيرة بينهما فى هذا الشأن دعا سيدنا معاوية نفسه بأمير المؤمنين ، واستعد للمحاربة . فلما علم سيدنا على بذلك ، أخذ جيشه وسار لمحاربته بالشام .

فاجتمع الجيشان فى جهه (صفين) موضع فى العراق بشاطىء الفرات

وهذه الواقعة تسمى (واقعة صفين) . وحينئذ طلب سيدنا علىٌّ من معاوية المبايعة ، والرجوع عن الحرب ، فأبى وأصرّ كل منهما على مطلوبه متحققاً أنه الصالح للأمة ، فانتشبت الحرب بينهما ، بقوة وشدة مدةً طويلةً حتى ظهرت السآمة والضعف فى جيش معاوية ، فلما رأى ذلك عزم على الفرار ، فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أطراف الرِّماح فرفعوها وقالوا : هـــذا كتاب الله بيننا و بينكم ، طالبين العمل بما فيه من التحكيم ، فقبل سيدنا علىٌّ ذلك ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص نائباً عنهم ، وأهل العراق أبا موسى الاشعرى ، وكتبوا عهداً بذلك ؛ و بأن الاجتماع يكون (بدومة الجندل) يوم كذا ، ثم رجع معاوية إلى الشــام ، وعلىٌّ إلى الكوفة ، وفى الموعد اجتمع الحكمان ، وكثير من الناس، وتفاوضا فى الأمر أياماً، وكل منهما حريص على صاحبه ، إلى أن اتفقا على أن كل واحد منهما يخلع صاحبه ، والمسلمون يبايعون من يشاءون ؛ فقــام فى الناس أبو موسى الأشعرى خطيباً وقال : قد اتفقتُ أنا وصاحبى هذا عَمرو عَلَى أمر نرجو به صلاح هذه الأمة ، وهو : أن يخلع كل منا صاحبه ، ثم يختار المسلمون خليفةً لهم ، وها أنا قد خلعت عليًّا ومعاوية ، كما أخلع سيفى هذا (وأخرجه من غمده) . ثم قام عمرو بن العاص ، شاهراً سيفه ، وقال : أيها الناس إن صاحبى هذا الأشعرى قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه عليًّا ، وأنا مصدق على خلعه أيضا ، ولكنى أثبت صاحبى معاوية، كما أثبت سيفى هذا ، وأدخله فى قرابه ، ونزل ، فصاحت الناس : حكم الحكمان بغير ما فى كتاب الله .

وعلى ذلك انتهى الأمر ، وانصرف أهل الشام مع عمرو ، يهنئون معاوية بالخلافة ، وانصرف أبو موسى ؛ ولحق بمكة حياء من الناس .

وبعض جنود عليٍّ لم يقبلوا أمر التحكيم ، ولم يرضوا بعده عن عليّ ولا عن معاوية ؛ بل خرجوا عن طاعة الإثنين ؛ وبايعوا (عبد الله بن وهب) وقطعوا السبيل ، يقتلون وينهبون ، فسموهم الناس (بالخوارج) وحاربهم عليّ بموقع (النهروان) فى العراق ؛ وقتل أكثرهم وشتت شمل الباقين .

ثم اتفق ثلاثة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هجرية ، وسار كل منهم لصاحبه . فأما معاوية فلم يقتل ، بل جرح فى صلبه ؛ وأما عمرو بن العاص فقد قتل عنه رئيس شُرطته (خارجة) لأنه كان نائباً عنه فى الصلاة تلك الليلة . وأما على رضى الله عنه ، فقد قتل بسيف (عبد الله بن مُلجم)أحد هؤلاء الخوارج الثلاث، بينما كان داخلًا جامع الكوفة إلى الصلاة قائلًا : الحكم لله ، لا لك ياعليّ ، ولا لأصحابك ، فقال عليّ : قتلنى الرجل لا يفوتنكم . فلما قبضوا عليه قال أمير المؤمنين: النفس بالنفس إن هلكت ، فاقتلوه ولا تمثلوا به ، وإن بقيت رأيت فيه رأيى ، ثم قتلوا الرجل بعد موت أمير المؤمنين ، وكان عمره إذ ذاك ٦٣ سنة ، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، ودفن سيدنا عليّ رضى الله عنه بالكوفة ، وباستشهاده صارت الخلافة لمعاوية ، وبنى أمية وإن كان قد بويع بها ولده الحسن ، إلا أنه بعد ستة أشهر تنازل عنها لمعاوية وقال : لا حاجة لى فى الأمر ،

وقد رأيت أن أسلمه إليه ، فيكون فى عنقه تبعته وأوزاره و بعث إلى معاوية بتسليم الأمر إليه ، فأجابه إلى طلبه .

وهكذا خرج الملك من أهل بيت الرسول إلى بنى أمية .

وصية سيدنا على لأولاده

يا بَنىّ ، عاشروا الناس ، إن غبتم حنّوا إليكم ،وإن فقدتم بكوا عليكم يا بَنى ، إن القلوب جنود مجندة ، تتلاحظ بالمودة ، وتتناجى بها ، وكذلك هى فى البغض ، فإذا أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه ، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم ، فاحذروه .

قوله فى النصائح والحكم

عليك ببرّ الوالدين كليهما ... وبرّ ذوى القربى وبرّ الاباعد
ولا تصحبن إلا تقياً مهذباً ... عفيفاً زكيًّا منجزاً للمواعد
وكفّ الأذى واحفظ لسانك واتق ... فديتك فى ود الخليل المساعد
ونافس ببذل المال فى طلب العلى ... بهمة محمود الخلائق ماجد
وكن واثقاً بالله فى كل حادث ... يصنك مدى الأيام من شر حاسد
و بالله فاستعصم ولا ترج غيره ... ولا تك فى النعماء عنه بجاحد
وغض عن المكروه طرفك واجتنب ... أذى الجار واستمسك بحبل المحامد
ولا تبن فى الدنيا بناء مؤمل ... خلوداً فما حى عليها بخالد

فهرس


الفهرست



السمير المهذب

سلسلة قصصية اسلامية هادفـــة

مـــن اربعـــة اجـــزاء

يطلب مـــن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان